مدخل الى علـم اللسـان الحديث

تحليـــل ونقد لأهم مفاهيمـــه ومناهجه

المقـدمة :

1 ـ الغايـــة من هذا التحليـــل

ان العلم الذى يطلق عليه فى البلدان الأوربية والأمريكية الآن اسم (Linguistics) (يعنون بذلك « علم اللسان ») (1) أصبح فى هذا النصف الثانى من القرن العشرين من اهم العلوم الانسانية وأوسعها مجالا وأكثرها نفوذا ونجوعا لا بالنسبة الى ما كان عليه فيما مضى فقط بل بالنسبة ايضا الى ما استفادته العلـوم الانسـانية الأخرى من تجديد عميق بتطبيقها لمناهجه الخاصة على مواضيع ابحاثها . فقد لا حظ المختصون فى هذه العلـوم النجـاح الباهر الذى كللت به جهود زملائهم فى الـ(Linguistics) بعـد ان اعاد هؤلاء النظر فى كل المعلومات والمناهج التى تركها لهم الباحثون السابقون . ومـا كانت فى الحقيقة اعادة نظر فحسب بل ثورة على المفاهيم والأساليب المسلمة التى ما كان يجرؤ احد قديما على جدالها وانزالها من مستوى التقديس الأعمى الى مستوى النظر والتمحيص . بل كانت فى الواقع ثورات توالت طيلة قرن ونصف انعشت البحث العلمى ايما انعاش . ونتج عن هذه الحركات الفكرية العميقة التى تزعزت لها المبانى النظرية الغربية القديمة تفاعل منهجى واسع النطاق اذ صار كل فن مـن فنـون الدراسات الانسانية يصبو الى تحصيل نفس النتائج من حيث الكم والكيف بامتثاله نفس المناهج والنظريات وترتب على ذلك ان العلم الذى نريد تحليله فى هذه المقالة اكتسب فى مـدة وجيزة بفضل ما توصل اليه من دقة منهجية وضبط نظرى صيتا عظيما فصار كالمثـال الذى يقاس عليه وكالامام الذى يقتدى به . فهذا التأثير ـ ويندر ان يوجد مثله ـ هو دليل واضح على اهمية هذا العلم فى ذاته واهمية الدور الذى لا يزال يلعبه فى ميدان البحـث .

ان هذا هو احد الأسباب التى دفعتنا الى كتابة هذا التحليل وهناك سبب آخـر ملازم له وهو يرجع الى شعورنا وشعور كل من الم بشىء من هذا الفن بالفراغ المهول الذى يوجد الآن فى صلب الدراسات العربية المتعلقة بعلم اللسان البشرى العام . فان الجهل المخيم الآن على المثقفين فى البلدان العربية بالاضافة الى هذه الفنون من المعرفة يكاد يكون شاملا والفراغ المذكور يكاد يكون « خلاء مطلقا » على حد التعبير الفيزيائيين فما رأينا فى أية جامعة عربية دراسات منتظمة فى هذه المادة الا القليل . وكل ما هنالك هو محاولات شخصية ترمى الى ادخال بعض المفاهيم فى الدراسات الجامعية وملاحظات مبعثرة يقتبسها الأساتذة من المؤلفات الغربية فيدرجونها فى محاضراتهم . ونستثنى من

(1) هذه تسميته بالانكليزية ، أما الفرنسية فهو Linguistique ، واما الالمانية فهو Sprachwissenchaft

ذلك بعض الفروع كالأصوات مثلا فقد اهتمت بذلك جامعة واحدة أو جامعتان ولكن من غير أن تعير لها اهتماما كبيرا اذ لم تجعلها مادة مفروضة كسائر المواد بل قد تجيز للطالب أن يختارها كمادة اضافية (2) .

وقد حاول بعض الباحثين تعريف الـ Linguistics للقراء العرب فألفوا لذلك كتبا تتفاوت قيمتها بحسب مقدرة كل مؤلف فى ادراك المفاهيم الجديدة (أو ما يبدو أنه جديد) وكلهم يشكر على محاولته الطيبة . الا أن هذه الكتب قليلة العدد — رغم المدة الطويلة التى مضت منذ أن الف جرجى زيدان كتابه فى تاريخ اللغة العربية (3) (وهى قطرة ماء اذا أضفناها الى اقيانوس الانتاج الذى صدر باللغة الانكليزية وحدها) . ويتصف الكثير منها بصفات غير محمودة الأولى هى أن مؤلفيها — الا القليل منهم — ليسوا من فرسان الميدان فأكثرهم تخصصوا فى علم الاجتماع أو علم النفس أو تاريخ الأدب أو عدة مواد كالأدب واللغة وغير ذلك وقل من تخصص (بكل مايدل عليه هذا اللفظ من معنى) فى علم اللسان البشرى كما يتخصص الباحثون فى علم الاجتماع وحده بل فى علم الاجتماع السيكولوجى أو الريفى او الصناعى (بعد أن يأخذوا حظهم من العلوم التى لها علاقة بتخصصهم بقدر ما تساعدهم على فهم ما دتهم الأساسية) .

والثانية هى اقتصار هذه الكتب على المفاهيم والمناهج التى تعتبر الآن فى أوربا وأمريكا آثارا بالية راجت فى هذه البلاد منذ خمسين سنة على الأقل وتجاوزتها الآن الانقلابات التى أشرنا اليها . واكبر العيوب على ما يبدو لنا هو أن تقدم لجماهير القراء الذين لا يملكون لغة غير لغتهم الأصلية معلومات تفوح رائحة الزهمة منها فلا يدرك القارىء العربى هذه الزهمة فيتقبلها مطمئن البال لا يشك لحظة واحدة فى طراوتها وغضاضتها وبهذا يستوفى الشعب العربى كل شروط التخلف الثقافى دون ما شعور .

والثالثة هى عدم التفاتها الى النقائص والأخطاء التى احتوت عليها الآراء والنظريات الأوربية — القديمة منها والحديثة — اذ قد تكون الأخطاء القديمة صعبة الزوال خصوصا اذا علقت بأذهان المتطرفين من المحافظين الأوربيين . فاذا تسربت هذه الآراء الغير الصائبة فى المؤلفات الموجهة الى من يجهل كل شىء عن حقيقة هذه الأمور ولم ينظر فيها النظر الصحيح ولم تمحص تمحيصا كان الضرر اعظم وأجسم .

ومن ثم يتضح عدم الملم بعض المؤلفين لا بأصول هذا العلم وجزئياته فحسب بل حتى بالمشاكل التى يطرحها وبالحلول التى يقترحها علماؤه .

(2) وقد بدأت ، على كل حال ، بلدان المغرب العربي تهتم شيئا ما بهذا الفن من المعرفة منذ حين . ونلفت أنظار الباحثين — ممن لا يسعه الاطلاع على ما يطرأ فى معاهد العلم الغربية — أن الـ Linguistics صار الآن فى أكثر الجامعات الأجنبية مادة أساسية اجبارية بالنسبة الى كل أقسام اللغات ابتداء من السنة الأولى ، وبالنسبة الى علم النفس ، وعلم الاجتماع ابتداء من سنة التخصص . وتدرس أيضا فى بعض المدارس الثانوية منذ أن أدخلت مواد جديدة مثل الجبر الحديث .

(3) وقد طرق فيه هذا العالم لأول مرة موضوع تطور اللغة ، غير أن هذه النظرة تجاوزها البحث الحديث .

كما يتضح ايضا عدم اطلاع البعض (ممن تكلف نشر مفاهيم هذا العلم) النزعات النظرية والمنهجية التى ظهرت فى العشرين سنة الفارطة فى تشيكوسلوفاكيا والدانمارك وفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة واليابان (4) .

وهناك سبب آخر قوى ، يرجع الى التناسب الوضعى الذى يوجد بين علم اللسان الحديث وبين علم العربية واعنى بهذه التسمية الأخيرة علم اللسان العربى الذى وضعه العلماء العرب فى أواخر القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) وبلغ أشده فى زمن ابى عمرو بن العلاء واكتملت مادته ووسائله على يد الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه فان هذا التناسب الغريب الذى وجدناه بين الأوضاع النظرية والمنهجية التى امتاز بها فكر الخليل ومن تابعه وبين الأوضاع العلمية الحديثة (واخص منها احدثها) لجدير بالدراسة (5) وقد أيقنا ان الدراسات اللغوية لن يكون لها اى شأن اذا لم يرجع أصحابها الى الخليل بن أحمد ويحاولوا أن يتفهموا ماقصده هذا الرجل العبقرى بتعليلاته لظواهر اللغة وذلك بالرجوع أولا الى كتاب سيبويه وشروحه التى لا تزال مخطوطة وبالرجوع ثانيا الى من أدرك مقاصده حق الادراك مثل ابن السراج وابى على الفارسى وآبن جنى وذلكم العلم الفذ : الرضى الاستراباذى وياحبذا لو درسوا فى نفس الوقت نظريات علم اللسان الحديث لأنه فيها من المعانى والمفاهيم — لو تدبروا لوجدوها شديدة الشبه بما يجدونه فى تلك الكتب القديمة وربما ساعدتهم على ادراك ما لا يزال غامضا لديهم من نظريات النحو العربى اذ ان المصطلحات العربية القديمة قد تنوسيت معانيها الدقيقة فى غالب الأحيان بل صارت الفاظا تدل فى المجتمع العربى المعاصر على مدلولات أخرى غير المدلولات التى قصدها الخليل وأصحابه . وذلك راجع أما لاستعمال معاصرينا لهذه الكلمات على غير ما وضع لها فى زمن سيبويه (لعدة عوامل منها تأثير الثقافة اليونانية مثلا) واما لاستغلاقها تماما عليهم .

وآخر هذه الأسباب هو سبب خاص بمجلتنا هذه فانه سوف ينشر فيها ان شاء القدير — عدد كبير من الأبحاث باللغة العربية وباللغات الأجنبية وربما عسر فهمها على القارىء الغير المحصل فرأينا أنه من الواجب علينا أن نقدم له أخطر المفاهيم وأهم المناهج التى يجرى استعمالها الآن فى البلدان المتقدمة — فى العلم والاقتصاد — ونفرغ جهدنا فى تفسيرها والتعليق عليها وذكر اقوال العلماء فيها مع توجيه انتقادنا لها أن اقتضاه الحال وأوجبه علينا المنطق السليم .

(4) وعذرهم فى ذلك هو كما قلنا عدم تفرغهم لهذا الفرع من البحث لأنهم لو ركزوا كل أبحاثهم فيه لحاولوا الاتصال بهؤلاء العلماء ولو بالمراسلة المستمرة كما يفعله كل المختصين فى أيامنا هذه وكذا استيعاب كل ما نشر فى موضوع اللسان البشري فى الحقبة الأخيرة مهما كانت اللغة التي نشرت بها هذه الأبحاث لأنه لا يجوز للباحث اطلاقا أن يعالج موضوعا الا بعد المامه بجميع ما قيل — خصوصا فى الآونة الأخيرة — فى هذا الموضوع . فهل يجوز — ياترى — لمن يتعاطى البحث فى العلوم الذرية أن يؤلف كتابا (ولو على سبيل التعريف والتقريب) فى العناصر الأولية للنواة الذرية أو فى مناهج البحث فيها دون أن يلتفت الى أحدث ما قاله المختصون فى هذا الموضوع ولا يطلع على المشاكل النظرية والتقنية التي طرأت منذ أن بدأ هو فى الدراسات النووية ؟ ، وهل يعتبر الباحث باحثا حقيقيا اذا لم يحتك بمن يقاسمه نفس البحث فى مختلف أنحاء المعمورة ؟ ، وهل يظن باللسان أنه أقل أهمية بحيث يمكن أن يتناول من الناحية الأدبية فقط ؟ .

(5) الفنا فى ذلك كتابا سيصدر فى السنة القادمة ان شاء الله .

2 ــ الصعوبات التي يلاقيها الباحث العربي عند معالجته لمثل هذا الموضوع

من المعروف ان الباحثين العرب المختصين فى العلوم الدقيقة والتجريبية (ويعد الـ Llnguistics من جملة هذه العلوم) يعانون صعوبات كثيرة جداعندما يحاولون أن يقدموا لجمهور المثقفين ما حصل لديهم من المعلومات الفنية اما بمجهوداتهم الخاصة واما بالنقل عن غيرهم من العلماء .

اما الصعوبة الراجعة الى عسر المادة نفسها لشدة تقنيتها أو تجريدها فهذا لا يخص الشعب العربى بالطبع بل هو عام الوجود فكل من يشتغل بالعلوم الدقيقة الشديدة التجريد يلاقى نفس الصعوبات خصوصا اذا حاول تقريب هذه المعلومات الى افهام الكافة .

ان العقبات الحقيقية التى تعترض طريق الباحث فى أيامنا هذه تنحصر فى المشكلتين الآتيتين :

ــ مشكلة اللغة العلمية والمصطلحات ؛

ــ مشكلة الأوهام العلمية الشائعة المسلمة .

تتفرع على المشكلة الأولى مشاكل جزئية ذات خطر عظيم منها الكارثة القاسية التى أصابتنا فى لغتنا منذ أن قصرت مهمتها على اداء المعانى الشعرية الخطابية واجبرت رغم أنفها على ترك المعانى العلمية اللهم الا ما جمد وتقلص ظله من المفاهيم التقليدية التى أصبحت لا تثير الصدى المطلوب منها فى أذهان الباحثين . وذلك اما لاندثار المفهوم الأصيل القديم وقيام مفهوم آخر مقامه وليس له ما للاول من الاشعاع والفعالية المنهجية واما للتمييع الدلالى الذى أصيبت به أكثر هذه المصطلحات فصارت تدل على مدلولات غير واضحة أو على صفات عرضية لا تلزم المفهوم القديم . وكل ذلك ادى الى اخطر خلل تبتلى به اللغة وهو عدم الدقة وعدم الضبط فى تأدية المعانى .

وليس الذنب على اللغة بل على الناطقين بها اذ بتضييقهم لمجال اللغة الفصحى وقصرها على التعابير الأدبية البحتة تصير الألفاظغير محدودة المعانى لأن الخيال الشعرى يقتضى ذلك ــ أن يكون المعنى مثل الضبابة أو مثل الحلم ــ وهذا لا يضرها ان استطاع أصحابها أن يميزوا بين مستويين من الأداء : العلمى والأدبى غير أن التصنع الأدبى الذى أصبنا به منذ عهد الانحطاط قد يصد كل ناطق عن التعبير الدقيق لأنه قد أقنعته كتب البلاغة (بلاغة العصور المتأخرة) أن الفصاحة لا تحصل الا باجتناب اللفظ المبتذل أى اللفظ الجارى على السنة العامة فقط ولو استعملته بكثرة العرب الفصحاء (6) .

(6) لا نعني التصنع فى التراكيب فهذا قد تفطن اليه الأدباء أنفسهم ونبذوه . بل مقصودنا بمس التصنع فى استعمال المفردات ، فقد تستعمل هذه العناصر من غير أن يلاحظ فيها المعاني التي تدل عليها فى مختلف السياقات وبدون أن تعتبر صلاحيتها لتأدية المعاني المقصودة . ومن البين الواضح أن مدلول الفصاحة قد تغير تغيرا ملموسا فى عهد الشروح والتعاليق المتأخرة وما رأينا أحسن مما قاله المرحوم مصطفى صادق الرافعي عند تحديده للفظ الفصيح : « الفصيح عندهم هو ما كثر استعماله فى ألسنة العرب ودار فى أكثر لغاتهم لأن تكرارها على الألسنة . دليل على تحقق النسبة الفطرية » (تاريخ آداب العرب ، ط. 1940 ، 1 ، 126) وما الفصاحة فى الحقيقة ــ بالنسبة الى العربية ــ الا الملكة أو القدرة الفطرية العفوية على التخاطب بلغة سلمت من العجمة واللحن .

ومشكل جزئي آخر من هذا الجنس هو عدم توفر المصطلحات العربيـــة لتأديـــة كل هذه المعاني العلمية وذلك رغم كل ما تبذله المجامع اللغوية من مجهودات لسد الفراغ وكان يجب أن تواكب اللغة الركب الحضاري العلمي مواكبة تامة مهما كان الأمر ومهما كانت السرعة التي يسير عليها هذا الركب . فالمزامنة والمسايرة اللغوية الكاملة هي مـــن اهم شروط التقدم وأشد الناس احتياجا لها هم الباحثون فكيف يتم لهم اقامة معلوماتهم وتطويرها وتحويرها واثراؤها لو لم يكن لديهم من وسائل التعبير ومن أدوات لحصـــر الأشياء وتصنيفها وتجريدها ما يكفي حاجتهم بذلك ؟ والحق أن الفئة القليلـــة مـــن الباحثين الحقيقيين (أي المبدعين منهـــم) لا تقوى أبدا على وضع الآلاف المؤلفة من المصطلحات لمقابلة ما وضعه غيرنا منها في عشرات السنين ثم ان السرعة العجيبـــة ـــ سرعة الصواريخ ! ـــ التي تتصف بها الحركات الاكتشافية والاختراعية في زماننا هذا لا تسمح لنا ان لم نقلب الأوضاع الحالية قلبا جذريا أن نلتحق بالركب الحضاري في أقرب الآجال فان سيرنا في طريق التنمية اللغوية ـــ وغيرها من التنميات ـــ بالنسبة الى سير غيرنا هو كتدرج المتواليات العددية بالنسبة الى تدرج المتواليات الهندسيـــة !

واذا كان الامر كذلك فكيف يجوز لنا أن نبقى البحث اللغوي على ما هو عليه الآن من بطء وفوضى ؟ وكيف نتركه يسير هذا السير المتثاقل ولا نبادر الى اتخاذ الوسائـــل الجبارة التي يجب اتخاذها في مثل هذه الأحوال ؟ أفلا يحسن أن يكون هذا العلاج على قدر تضخم الداء ؟ (7) لقد قلنا في غير هذا المكان أن الثمرات التي تجنيها الشعوب من أعمال المجامع ضئيلة جدا بالرغم من كل المجهودات التي تبذلها ومهما كانت هذه الجهود فانها لن تفي أبدا بالعدد الهائل مـــن الحاجات التي لا تزال تطرأ علينا في عصرنا هـــذا وكل يعرف البطء الذي تتسم به الأعمال المجمعية (وهذا لايخص المجامع العربية (8) الا أن الشعوب الأخرى لا تترجى شيئا كبيرا من مجامعها اللغوية وقد بادرت الى اتخاذ وسائل أخرى لتكييف لغتها) . والذي زاد الطين بلة هو أنها لا تتفق في غالب الأحيان في وضع المصطلحات .

(7) وقد حاولت جامعة الدول العربية تنظيم ما تبعثر من هذه الجهود وتوحيد ما جرى استعماله الآن من المصطلحات ، فنظمت لذلك مؤتمرات (الرباط : 1961 ، والجزائر : 1964) الا أننا ما لمسنا بعد نتيجة محسوسة من هذه اللقاءات باستثناء مركز التعريب الذي أنشأته بالرباط وقد بقي هذا المركز مدة طويلة يعمل في عزلة تعوزه المساعدة المادية والفنية وقد استطاع رغم ذلك أن يواصل نشاطه .
ونحن لا نفهم بتاتا كيف تقرر المشاريع ولا يلجأ في تحقيقها الى العمل المخطط اذ لا يعقل أبدا أن يتم مثل هذا العمل الباهظ بدون أن يوضع له مخطط لمدة معينة يبالغ في تدقيقه وضبطه ويتشدد في تطبيقه الى أقصى درجات التشدد ، وتعين فيه سلفا كل حكومة سهمها المالي والفني ـــ بل وتدفعه بمجرد الموافقة عليه ـــ وتحصر به (مثل كل المخططات الاقتصادية الجدية) جميع الأهداف والوسائل ، وتحدد مراحل انجازه بما تحتوي عليه من عمليات جزئية مفصلة تفصيلا تقتضيه دقة برمجتها ، وكذا كل الآجال التي ينبغي أن تتم دونها هذه العمليات . وان اكتفينا بالتوصيات العـامة العذرية المبهمة فقد استوجبنا بذلك التخلف الذي لا نزال نعانيه .

(8) فان المجمع الفرنسي قد احتاج الى أكثر من قرن ليأخذ قرارا في اصلاح طفيف يخص الرسم الهجائي لكن الفرنسيين لم ينتظروا من مجمعهم أن يمدهم بما يحتاجون اليه بل أخذوا على عاتقهم ، فور شعورهم بهذا الاحتياج ، البحث الجدي لتحسين مردود لغتهم .

ثم ان هناك صعوبة أخرى أخص من هذه وهي ترجع الى موضوعنا هذا بالذات وتتعلق على الخصوص بمشكل خطير جدا ما رأينا أخطر منه ولا رأينا ناسا كثيرين يولونه كل عنايتهم . وهو ناتج عن تجاهل أكثر المثقفين أو عدم اكتراثهم بهذه الحقيقة الجوهرية وهي أن اللغة التي يستعملها الناس في عصر من العصور قد تكون ، اذا لم يعد فيها النظر ، من أكبر العوائق في طريق **الترقي العلمي** وهذا ما يحتاج الى مزيد من الايضاح لأننا نخشى أن يلتبس الأمر على بعض القراء . اننا نعني باللغة ههنا **مجموعة المفردات التي يجري استعمالها في زمن معين** فان لكل عصر مفرداته الخاصة به ، تدل على مسميات شتى ، تظهر فيه ثم تزول ويترك استعمالها فتزول معها اسماؤها . غير أن هذه المفردات لا تدل فقط على أعيان محسوسة (مثل الملابس والأدوات وغيرها) بل قد تدل أيضا على معان مجردة ومفاهيم خاصة بهذا العصر وبما ظهرت فيه من نظريات علمية وأساليب استدلالية وغير ذلك ونحن نعرف أن أحد أدوار اللغة هو أن تكون مركبا نقالا للأنظمة الفكرية وأداة لنشرها في البيئات المثقفة وذلك بواسطة نظامها الافرادي (أي نظام كلماتها بدواله ومدلولاته) . فمجموع المعاني أو بالأحرى نظام **المفاهيم** الذي يسود النشاط الفكري في عصر من العصور يوجد بالطبع متبلورا في مفردات ذلك العصر أي في لغته . فاذا تطبع الناس على استعمال هذه الكلمات بتلك المعاني واستأنسوا مضمونها بل ورفضوا أن يكون لها معان أخرى غير ماتعودوا عليه كان ذلك من أفقم الموانع للترقي العلمي . اذ لايمكن أن يحصل أي تفاهم وأي اتصال عقلي بين الباحثين وبين العالم والمتعلم اذا لم تتحد في أذهانهم المدلولات التي تحملها نفس الألفاظ . ونخص من هذه المدلولات المتعود عليها المجموعة من المفاهيم التي أخذها الناس عن المؤلفين الذين عاشوا في عهد التحجر الفكري العربي لأن ما يرجع الى العلماء المجتهدين المستقرين للأحداث ، المستنبطين للقوانين فلا سبيل الى وجودها عند اولائك الا ملبسا وممسوخا فالمعاني القديمة قد زيد فيها ما ليس منها ونقص منها ما هو لازم لها والواقع أن أكثر المؤلفين قد عجزوا عن فهمها فهما صحيحا وذلك لشدة ابهامها عليهم بعد اغلاق باب الاجتهاد عليها .

وزد على ذلك الالتباسات الفاحشة التي نشأت عن تداخل المفاهيم . فقد وقع هذا الالتباس لأول مرة عندما امتزجت العلوم الاسلامية بالفلسفة اليونانية ولم يحاول المترجمون اذ ذاك التفادي من هذا المزج بين الأنظمة الدلالية (كترجمتهم لكثير من الألفاظ اليونانية بألفاظ اسلامية كان وضعها العلماء الأولون للدلالة على مفاهيمهم الخاصة) . كما وقع أيضا مثل هذا في عصرنا الحاضر اذ كثرت النقول عن الكتب الغربية ولم يتحفظ فيها أصحابها التحفظ اللازم .

أما الأوهام التي لاتزال حاضنة في اذهان المفكرين وخصوصا اللغويين منهم فهي كثيرة ويالأسف وليست كل هذه الأخطاء متساوية في قوة تأثيرها ولا متكافئة في تمكنها من الاستيلاء على العقول ولا في مدى غزوها للأذهان فمنها البسيطة الساذجة التي لا ينخدع بهاذوو الالباب ومنها ما يصعب أن يكشف الخطأ فيها لاكتسائها أبهى الأكسية العلمية وظهورها بمظاهر التحري العلمي الموضوعي الدقيق . وسنحاول أن نحصرها حصرا بدون استيعاب لتعرضنا لها في أماكن أخرى .

رأينا فيما يروج الآن من أفكار ونظريات في العلوم اللسانية ، شرقا وغربا ، نوعين من الأخطاء الشائعة :

ـ أخطاء فى الأصول المنهجية نفسها أو فى تطبيقها على المبحث العلمى .

ـ أوهام تتعلق ببعض النظريات العامة كانت سبب الاغلاط الجزئية الكثيرة فى تفسير الظواهر اللغوية وتعليلها .

لقد جعلنا فى الصدارة ما قد يبدو لنا انه أكثر خطورة من غيره وهى الاخطاء المنهجية . فاننا لا نظن أن النظريات والآراء العلمية غير المنهجية تستطيع البقاء المديد فى الأوساط العلمية الراقية وهذا من حسن حظ العلماء فان النظريات الصحيحة هى التى تتكيف مع مرور الزمن وبمقتضى التوسع الاكتشافى المتواصل وهى لاتبطل بذلك بطلانا كاملا انما يدخل عليها ـ ان صحت ـ التعديلات التى يفرضها التوسع المذكور . وهكذا يعتلى بنيان العلم شئا فشيئا « بتصفح الاخير قول الاول واستيلائه على ما فاته» (9) وليس الأمر كذلك بالنسبة الى المناهج لأنها طرق تطرق يوميا بكيفية محسوسة ومسالك يسير عليها الباحثون غالب أوقاتهم فيتعودونها ويألفونها فلا يريدون بها بديلا فاذا حصلت العادة ورسخت فى أفعالهم صعب تغييرها وتعديلها هذا بقطع النظر عن اهميتها بالاضافة الى البحث نفسه فقد يغيب عن الأذهان أن أساليب البحث قد تسبق فى الوجود النظريات اذ ان الطرق المختلفة التى يسلكها العلماء فى أبحاثهم وتجاربهم قد تؤديهم الى بناء النظريات ويمتاز هؤلاء العلماء بعضهم عن بعض بمناهجهم أكثر مما يمتازون بنظرياتهم . هذا وان استقرت هذه المسالك على حالتها الأولى وجمدت كان الخطب عظيما على مردود الأبحاث ، خصوصا اذا منح الباحث لمناهجه الصلاحية المطلقة واقتنع بعدم احتياجها الى التعديل والتصويب (وهذا قد يقبل ويغتفر عند ظهور المناهج الجديدة الثورية التى تثبت نفسها بنجاحها ونجوعها أما اذا طال الزمان واحتاجت هى بدورها الى التعديل فلا يحق حينئذ لأى واحد أن يفر من هذا التطوير المحتوم) .

ان أهم الأخطاء المنهجية الشائعة اليوم فى الأوساط العلمية العربية تتوزع فى هذه الآونة على نوعين من البيئات : البيئة التقليدية التى حافظت على التقاليد الدراسية والبيئة التجديدية التى نشأت عن احتكاك العرب بالحضارة الغربية الحديثة . فأما البيئة الأولى فقد واصلت دراستها للغة بنفس المناهج التى تركتها لها الأجيال المتأخرة وأكبر العيوب التى أصيبت بها هى تعلقها بالمعيارية المطلقة ونعنى بذلك شدة اهتمامها « بالعلل التعليمية » على حد تعبير الزجاجى (10) وقلة التفاتها الى « العلل القياسية » والى الأسرار الكامنة فى الظواهر اللغوية . على أننا قد لا حظنا بعثا جديدا للمفاهيم العربية النشيطة الناجعة على يدى عدد من العلماء مثل المرحوم محمد على النجار وشخصيات أخرى جليلة القدر امتازوا عن غيرهم بمعرفتهم العميقة لتلك المفاهيم العربية الاصيلة . ثم زد على هذا استعمال هذه البيئة ـ باستثناء أولائك الباحثين ـ للمفاهيم المنطقية اليونانية بكيفية تقليدية بحتة . وكل يعرف ـ حتى الغربيون ـ ما لهذا المنطق من اثر سيء فى البحث العلمى بصفة عامة والبحث اللغوى بصفة خاصة .

(9) أنظر : « الامتاع والمؤانسة » للتوحيدي ـ ط. القاهرة 1939 ، 202 .

(10) انظر كتابه « الايضاح فى علل النحو » تحقيق مازن المبارك ، 64 . وانظر أيضا « أصول النحو » لابن السراج (مخطوط الخزانة العامة بالرباط) ، رقم 326 أوقاف ، الورقة 2 « هذا ليس يكسبنا أن نتكلم كما تكلمت العرب وانما نستخرج منه **حكمتها** فى الأصول التى وضعتها » .

هذا ولم يحاول أفراد هذه البيئة أن يجددوا هذه الطرق الا فى الحقبة الأخيرة حيث بدأت تهتم بما يجرى فى خارجها من أبحاث وتحتم عليها بالطبع أن تتأثر بالبيئة التجديدية فوقعت هى أيضا فى نفس الأخطاء .

اما البيئة التجديدية فقد وفقت فى كثير مما أختارته لبحثها من مناهج استقرائية وتحليلية وخصوصا المناهج التى تعتمد على التتبع التاريخى اذ أدخلت فى دراسة العربية مفهوم التحول والتطور ونبذت بعد ذلك المعيارية المحضة فى البحث العلمى كما فعل العلماء المشار اليهم آنفا . غير أن الأوهام التى سادت فى الأوساط العلمية الغربية تسربت اليها بحكم التأثير فأوقعتها فى نفس المشاكل .

نذكر منها الاعتقاد الراسخ (وأى رسوخ !) بأن الطريقة الفيلولوجية الأوربية هى الأسلوب الوحيد الذى يناسب البحث اللغوى . وهذه الطريقة تقتصر — كما هو معروف — على النصوص القديمة ولا تتعداها ثم جددت فى القرن التاسع عشر فأدخلت فيها طرق النحو المقارن ثم غلبت عليها النزعة التاريخية فصار اللغويون فى ذلك العهد (ومن لا يزال يرى رأيهم مثل كثير من الشيوخ المستشرقين اللغويين) لا يرون فى غير هذه المناهج التطورية منهاجا علميا على الاطلاق ! فكل ما يطلق عليه لفظ العلم فلا بد أن يكون تحليلا للتطور اللغوى ! وسنرى أن هذه الآراء قد كانت فى بدء أمرها رد فعل للنزعة المعيارية التى سادت فى العصور السالفة . وهذا من أثر المذهب المسمى بالايجابى الذى ظهر فى منتصف هذا القرن (Positivisme) .

ثم أن الاعتقاد — على اثر ظهور الاعتقاد الأول — بأن اللجوء الى الوصف المجرد من كل تعليل — هو وحده يكفل نجاح البحث وهذا رد فعل آخر للتعسفات الفلسفية الميتافيزيقية التى كانت قد أصابت الدراسات اللغوية منذ زمان بعيد وهو أيضا من أثر الايجابية فقد يزعم أصحاب هذا المذهب (وهم كثيرون فى أيامنا هذه) أن البحث الصحيح هو الذى يقول : كيف ؟ ولا يقول لم ؟ لأن مفهوم العلة هو مفهوم ميتافيزقى !

ثم الظن فى هذه الأيام الأخيرة بأن السلوك اللغوى هو الذى يستحق وحده أن يؤخذ بعين الاعتبار فى المشاهدات والعمليات الوصفية . أما ما توارى من الظواهر وما لا يمكن أن يلاحظ فى ضمن هذا السلوك فيجب أن لا يعتد به لغيابه عن الحواس . وهذا من أثر المذهب التجريبى المتطرف وبالخصوص المذهب البيهافيورى الأمريكى (أى السلوكى) وهو رد فعل على كل منهاج لا يعمد الى المشاهدة الموضوعية الخارجية أو ما يعمد الى الافتراض غير معتد بظاهر الأمور . فهو اذا نوع من الظاهرية المنهجية .

ان كل هذه الأفكار كما رأينا ، يمكن أن تبررها الظروف التى نشأت فيها الا أنها بطغيانها على غيرها من وجهات النظر واستبدادها بالبحث اللغوى على حساب غيرها ونفيها لكل منهاج لم يبن على أسسها صارت أوهاما خطيرة يجب تبديدها واستئصالها .

ونتيجة لهذه الاعتقادات ، تقرر عند اولائك الباحثين وعند من اتبعهم من الباحثين العرب نبذ المعيارية حتى كظاهرة أو كعنصر هام له دوره ومقامه فى مجارى اللغة وحصل منهم هذا لعدم تمييزهم بين المناهج التحليلية وبين موضوع تحليلها . وهذا من أكبر الاغلاط التى يمكن أن يرتكبها الباحث كما سنراه وكذلك نبذوا كل منهاج تعليلى فرجعوا بذلك الى الوراء أى الى نوع من الوصف البدائى يكتفى بتصوير ما يشاهده تصويرا شمسيا وتركوا الامور الجوهرية التى تنحصر فى اقامة النظائر (Eléments isomorphes)

والكشف عن النسب والعلاقات العميقة وبيان الأسباب والعلل البنوية . كما رفضوا حق الباحث فى الافتراض ـ واحوج شيء الى هذا هو العلم ـ ظنا منهم أن الأحداث والظواهر قادرة هى بنفسها وبدون أن يتدخل فيها الباحث . على أن تطلعنا على أسرار حدوثها وأسباب مجاريها وتحولاتها . وهذا قد كذبته العلوم التجريبية الحديثة التى لا تكتفى بالوصف الساذج بل تتجاوزه الى البحث عن الأسباب ببناء النماذج والمثل الرياضية اللائقة (Modèles explicatifs) ثم تجرى على غروضها التجارب حتى اذا تم لها تصحيحها صارت بذلك حقائق ولو مؤقتة أو تبطلها ان أبطلها الاختبار فتطرحها جانبا وتفكر فى نماذج أخرى أكثر صلاحية . وسنرى فيما يلى كيف تاثر زملاؤنا بهذه الأشياء حتى نبذوا بدورهم مفهوم التقدير فى النحو ومفهوم العامل وغير ذلك وهو غلط فاحش سنبينه ان شاء الله .

أما النظريات الخاطئة فاكثرها ناشيء اما عما استمده العلماء من المفاهيم التقليدية التى لم تصححها الأجيال السابقة واما عن الأخطاء المنهجية التى ذكرناها . ونذكر على سبيل المثال فقط ـ اذ اننا سوف نتعرض لها فى تحليلنا ـ فى **الصوتيات** : نظرية المقطع فى الدينامية اللفظية (وفى هذا العدد مقال لنا باللغة الفرنسية فى هذا الموضوع نفسه فليراجعه من يشاء) ونظرية المصوتات وما له علاقة بذلك مثل فكرة المصوتات الممدودة والمقصورة والأصوات المزدوجة وغير ذلك من النظريات المشبوهة . فى **جغرافية اللغة ودراسة اللهجات** : نظرية المدونات اللغوية (Corpus) واعطاء الأولوية للهجات أو لغة العوام دون لغة الثقافة وكان يجب أن تتعادل الدراستان لأنه لا فضل لهذه على تلك . فى **الدراسات التطورية** : النظرية التى تعتبر التحولات الصوتية كأحداث محتومة يستحيل على الناطقين أن يتدخلوا فيها وهى نزعة قديمة تنتمى الى النحاة المحدثين (Néo-grammairiens) والنظرية التحليلية الذرية » اى التى تعتبر العناصر اللغوية وأطوار تحولاتها كاشياء منفصلة ومستقلة بعضها عن بعض . فى **النحو والتراكيب** : نظرية الجملة وهى تلحق طرفى الجملة ـ المسند والمسند اليه ـ بالمفاهيم المنطقية فتسميها موضوعا ومحمولا (sujet et prédicat) وهى من تركات المنطق اليونانى الذى يسوى بين النشاط اللغوى والنشاط الفكرى .

ثم هناك آراء ومفاهيم أخرى خاطئة أيضا تخص علوم العربية كنظرية التأثر المحتوم التى تنفى تماما اصالة هذه العلوم وتجعل من كل مفهوم عربى يوجد فى كتاب سيبويه مفهوما يونانيا أو هنديا ثم النظريات الحديثة فى القياس العربى فهو تارة الـ analogie (ولا ندرى أى نوع منه يقصد العملية الذهنية المنطقية أم الحمل اللغوى ؟) وتارة أخرى الـ Syllogisme اليونانى . وقد قرر بعض الباحثين العرب نبذ المفاهيم العربية بعد أن تأثروا ـ أيما تأثر ـ بهذه الآراء الخاطئة .

ان المشاكل التى تنتج عن هذه الأوضاع الفكرية لخطيرة بالنسبة الى البحث اللغوى وقد بحثنا عن السبب الرئيسى الذى أفضى بنا الى هذه الحالة فرأيناه ينحصر فى ظاهرة واحدة فقط وهو الجمود الفكرى الناتج عن التقليد ـ وخصوصا فى ميدان التعبير الفنى واستعمال المفاهيم الأدائية (11) فان أكبر عيب يبلى به الرجل المثقف هو أن يرتاح الى ما يجده فى نفسه من مفاهيم وأن يطمئن كل الاطمئنان الى ما يجده عند غيره لا لشيء الا لأن هذه المفاهيم قد ارتضاها من يعرفه هو من العلماء ولأن مجرى العادة تقتضى ذلك منه فالباحث المقلد لا يحاول (الا قليلا) :

---

(11) أى التى تصلح للتحليل والبحث فهى فى الحقيقة « أدوات » عقلية .

ـ أن يحقق مضمون المفردات القديمة بالرجوع الى النصوص التى جاءت فيها (كل النصوص) ،

ـ أن يقارن بين هذا المضمون وبين المفاهيم التى ثبت أنها تصلح للبحث العلمى باجماع العلماء ،

ـ أن ينظر الى كل ما قيل ونشر حول المفاهيم الجديدة ولا يقتصر فى ذلك على مذهب واحد ،

ـ أن يعتد بما وجه لهذه المعانى الطارئة من نقد نزيه قد يكون سببا فى ابطالها .

ـ أن يعتبر المفاهيم العلمية فى ذاتها ومن حيث هى هى لا من حيث انها حديثة يظن أن حداثتها تفرض صحتها ولا من حيث انها قديمة فيحتج لها بأنها مسلمة منذ زمن بعيد والامر على عكس ذلك .

ـ أن يراعى عوامل التحول الزمانى (حسنا كان أم سيئا) وعوامل البقاء فى معانى الكلمات فاذا وقع منه هذا فقد يقتصر غالبا على التطور والتحول ويظنه دائما تقدما فكريا واذا راعى الجانب الاستقرار ى للمعانى فقد يظنه تحجرا وجمودا فكريا ان تعصب للحديث أو يعتبره الحق الذى لا غبار عليه ان تعصب للقديم والواقع المشاهد اشد تعقيدا مما يظنه .

البـــاب الأول

تحديـــد العلمـــاء المحدثين لعلـــم اللســـان وبيان أهم أطـــواره

I تحديـــد علم اللســـان وتوضيح مفاهيمـــه

سبقت لنـــا الاشـــارة فى أول مقدمتنـــا الى مـــا يقصده علماء الـ linguistics المعاصرون بهذه التسمية اذ قلنا انهم يعنون بها « علـــم اللسان » وقـــد حان وقت توضيحه وبيان أغراض المعنيين به .

لقد تعود هؤلاء العلماء أن يحددوا مضمون التسمية المذكورة فى مقدمات كتبهـــم تحديدا أوليا مساويا تماما لما يقتضيـــه لفظ الـ (linguistics) فى ذاته فقالوا مثـــلا : انه « الدراسة العلمية للسان » (1) فما زادت عبارتهم ، كما رأينا ، على مـــا دلت عليه الكلمة الأوربية ، الا فائدة الحصر والتوكيد وقد يحتاج الى ذلك القارىء الأوربى الذى لم يطلع بعد على محتوى هذا العلم نظرا الى ما قد يجده فى تسميتـــه من غموض خصوصا فى اللغة الانكليزية واللغة الفرنسية (2) . أما بالنسبة الى اللغة العربية فقد يبدو من هذا التحديد كأنه لغو وحشو أو شىء مفروغ منه على الأقل لا جديد يستفاد من تحصيله . والحق أن مثل هذه التحديدات لا يستطيع أن يجد فيها من لا الم له بالعلوم الدقيقة والتجريبية ـــ سواء كان عربيا أم غير عربى ـــ خصوصا اذا لم يتحفـــظ كـــل التحفظ فى حمل الألفاظ على محملها الصحيح ـــ غير ما يجده عوام الناس فى مضمون كلماتها وذلك لان هذه الكلمات قد سارت ودارت على السنة الكافة من الناطقين دورانا عظيما فبكثرة ابتذالها ودورانها صارت تدل على معان عديدة غير محددة ولا محصلة . وان وقع منه هذا التحفظ فلا بد حينئذ ان يكون قد راعى ما هو لا زم لكل لفظة فيها من معنى اصطلاحى أو معنى طارىء لم يكن معهـــودا من قبل عند أكثر الناس ولا بـــد أن يكون قد تحرى المعانى المقصودة عند اهل هذا العلم لا عند غيرهم .

يريـــد هـــؤلاء الباحثون بتحديدهم هـــذا ان يكون مبدأ لشرحهم لمفهوم « علـــم اللسان » . يضعونه وضعا أوليا ، كما قلنا ثم ينطلقون منه الى ما هو أوسع وأبين فهو فى الحقيقة مجرد متن يحصرون به جميع الصفات اللازمة للعلم المذكور فيجمعون بذلك كل العناصر الأولية التى تدخل فى حده ويمنعون كل العناصر الخارجة عنه أن تدخل فيـــه .

فبناء على هذا يجب أن نلتفت الى العنصرين اللذين تضمنهما هذا التحديد وهمـــا : العلم أو الدراسة الموصوفة به ثم اللسان الذى هـــو موضوعها، ونجتهد فى البحث عن محتواها الحقيقى وبيان ما يدخل فيه وما يخرج عنه بالضرورة ، حتى يرتفع كل لبس عن أذهـــاننـــا

(1) أنظر ما قاله جون لايونس (J. Lyons) فى كتابـــه : Introduction to theoritical linguistics كمبريج ، 1960 . ص 1 : " Linguistics defined as the scientific study of language " وكذلك ما يقوله أندرى مارتني (A. Martinet) فى : Eléments de linguistique Générale ط باريس ، 1967 ، ص 6 .

(2) أن هـــذا اللفـــظ مـــركب مـــن الكلمـــة اللاتينيـــة lingua واللاحقة lecus - ica → ique – ics وتدل هـــذه اللاحقة على النسبة . فالتقدير هو ههنا : Linguistics Science

ان أول محاولة نحاولها ههنا هي التطبيل الدقيق لما يقوله العلماء اليوم عن نزعات العلم الحديث وعن طرق تحصيله والنظر فيما أفضت اليه جهودهم في تحديد نظرية جديدة للمعرفة العلمية (épistémologie) وذلك لتتبين لنا بوضوح الفكرة العلمية الأساسية التي بنيت عليها مفاهيم علم اللسان ومناهجه الجديدة . ثم ننتقل الى مادة البحث اللغوي وموضوعه لنكشف كذلك عما وضعه العلماء المحدثون تحت كلمة « لسان » حتى لا نقع في التباس آخر مماثل لالتباسات التي ذكرناها . لأننا ان أسأنا فهم ما تواضعوا عليه من تحديد لمادة ابحاثهم نكون قد أخطأنا الغرض من الأساس .

1 — مفهوم العلم في نظرية المعرفة الحديثة :

اعتاد ذوو والثقافة لعهدنا ان يسمعوا من أفواه اساتذتهم في فلسفة العلوم ، ان المعرفة العلمية تتمايز عن المعرفة العادية الفطرية في كثير من صفاتها ، وأن هذا الاختلاف قد تفطن اليه الفلاسفة تدريجيا منذ أقدم الأزمنة وربما يكون ارسطو أول من أعطى المعارف العلمية أحكامها الحقيقية فمن أهم ما حققه هذا الفيلسوف هو القول « بأن العلم انما هو علم الكلي » (كتاب مابعد الطبيعة 1087 ا) ومعنى ذلك أن معرفتنا للجزئيات أي الأعيان والأشخاص ليست من العلم في شيء وما دامت تتكون من انطباعات فردية ومن احاسيس ساذجة متقطعة لا رابط بينها فلا يمكن أن تتخلى عما هو نقيض للعلم وهو الاختلاف الاعتباطي الذي لا يعقل والكثرة الفوضوية التي لا يحصرها مفهوم . فالمعرفة العلمية كفعل من أفعال الانسان هي ادراك الأشياء لا في أفرادها وأعيانها فحسب — لأن هذا الادراك هو ابسط العمليات النفسية — بل في داخل اجناسها وانواعها وبالنظر الى المفاهيم المجردة التي تشترك فيها .

على ان نظرة ارسطو هي على كل حال نظرة ميتافيزيقية لأنه يحاول دائما أن يصل الى حقائق الامور في ذاتها لا من حيث أنها ظواهر وليس الكلي عنده ما هو عند العلماء اليوم أو على الأصح ليس مفهوم الكلي الأرسطو طاليسي مماثلا لما ينعته العلماء (لا الفلاسفة) بكلمة « العام » (général) لان العام لا يقال عندهم على الكليات التصورية (الا اذا جرى كلامهم على شكل فلسفي) بل على الاحداث والوقائع التي تتحد عند وقوعها ومجاريها في حكم من الأحكام . وأحسن كلمة يمكن أن تنطبق عليها هي كلمة الاطراد العربية وعندما امتزجت المفاهيم اليونانية بالعربية التبست لفظة « جنس » (وهي تدل على احدى الكليات) بمدلولها الاغريقي (3) بلفظة عربية وهي « الباب » (4) وهي تدل عند النحاة الأولين على المجموعة المطردة من الأحداث فصارت تعاقب احداهما الاخرى في مثل هذه العبارات : « ليس هذا من باب كذا = . . . من جنس كذا » فالكلي كمفهوم فلسفي قديم هو **اللفظ** المحمول على كثيرين (5)

---

(3) يقول فرفوريوس (ط. ع. بدوي ١١١ / 1022) « ان الجنس يقال أولا على جنس لجماعة قوم لهم نسبة بوجه من الوجوه ، الى واحد » . وقد اقتبس العرب قديما (منذ الجاهلية) هذا اللفظ وأعطوه معنى قريبا من هذا ، وصارت تدل فيما بعد على جوهر الشيء أي مادته التي يتكون منها وهو ما يقصده سيبويه في هذه العبارة : « كما تقول ثلاثة أثوابا أي من ذا الجنس » (ط . بولاق ١١ / 298) .

(4) وسنرى أن « الباب » عند النحاة العرب هو مفهوم رياضي محض .

(5) الذي في كتاب البرهان لارسطو (ط.ع. بدوي ١١ / 324) أن الكلي هو « الامر الموجود للكل وبذاته (أي لا بالعرض) » وفي كتاب فرفوريوس (نفس المصدر ١١١ / 1051) أن الالفاظ الخمسة تشترك في أنها تحمل على كثيرين ».

أما اذا استعمل بمعنى العام فهو وصف للظواهر التى تطرد وتستمر (وهذه مصطلحات عربية صميمة) فى الزمان والمكان (بدون تخلف) . هذا بالنسبة الى الظواهر الطبيعية أما بالنسبة للموضوعات الرياضية فهو الموضوع وضعا عاما أى غير معين ولا خاص بشىء من الأشياء ليمكن اجراء العمليات الجبرية والمنطقية الصورية عليه (وذلك مثل المتحولات الرياضية) .

وحاصل الأمر ان المعرفة العلمية هى قبل كل شىء معرفة عامة لا تتعلق بأعيان الأشياء بل تتجاوزها الى القدر المشترك الموجود فى كل منها أى الأوصاف المستمرة التى يسميها العلماء العرب أصولا . فكل مفاهيم العلم مبنية على هذا الأساس : سواء كانت مشاهدة أم استنباطا أم استنتاجا أم قانونا أم مبدأ . . . فكلما ارتفعت فى درجات العموم والاطراد كانت أفيد وأعرب للحقيقة . ثم الوصف الثانى الذى تعارفه الناس فى هذه المعرفة هو الموضوعية (objectivité) ويعنى بذلك العلماء المحدثون الصفة التى تكون عليها معلومات الشخص عند مطابقتها التامة للواقع الخارج عن نشاطه الذاتى ومغايرتها لما يتوهمه فى ذاته مما ليس فى الخارج . واذا استعملنا المصطلحات الفلسفية الحديثة (فى اللغة العربية) قلنا ان الذوات أى الافراد فى ذاتها (Sujets) المفكرة ، الفاعلة العالمة ، الناطقة الخ ، تتصل بما هو خارج عنها فتتأثر به وتؤثر فيه ويسمى هذا الخارج موضوعا لأن كل ما هو فى الأعيان (أى ما هو خارج عن الشعور الذاتى) هو موضوع لأفعال الذوات يقع فيه الادراك والعلم والبحث والمباشرة العضوية وغير ذلك . فالخطر الذى يهدد المعرفة الصحيحة ناتج عن نشاط الذوات اذ ربما لا تميز بين ما هو راجع لها — أى الى نشاطها الخاص بها — وبين ما هو راجع الى موضوع نشاطها فى نفسه أى الأعيان فى أنفسها فقد يدخل الباحث فى موضوع بحثه من الأوصاف والأحكام ما لا يوجد فيه على الحقيقة بل يرجع الى ذاته هو وذلك مثل الخلل الذى يكون فى حواسه أو التخيلات التى يصطنعها ذهنه لأسباب مختلفة وقد اتفق العلماء — تفاديا للذاتية — على اجراء بعض المقاييس : فالأول هو أنه لا تثبت موضوعية المشاهدة الا اذا تكررت وأحسن من هذا أن يقال ان محصول المشاهدات لايبلغ الموضوعية الكاملة الا اذا تمكن **كل الباحثين من تصحيحها** فى أى مكان وأى زمان كان . فان أكبر دافع للشك هو أن يستحيل تصحيح الحكم أو الخبر الذى وقع فيه النظر . ثم نظير هذا المقياس هو اللجوء الى اتفاق الباحثين أو توارد أحكامهم فى موضوع معين وذلك بدون أن يكون هذا الاتفاق صادرا عن اتصال بعضهم ببعض فاذا كان مجرد حكم فهو يوافق مفهوم الاجماع عند العرب وأما اذا كان أثرا أو خبرا فهو يناسب التواتر .

أما الأوصاف الباقية التى عرفها الكثير من المثقفين — لكن من غير تدقيق فى غالب الأحيان — فهى راجعة الى مصادر العلم وأصول تحصيله . فمن المعروف أن للعلم منبعين هما مشاهدة الظواهر وعيانها أو كما يقول أسلافنا تصفح الامور وتتبعها — بدون انقطاع — ثم اجراء العمليات العقلية على محصول المعاينة اى على المعطيات التى ثبت وجودها وتيقن الباحث من صحتها وموضوعيتها .

وهذان المنبعان الرئيسيان يسميهما علماء العرب الحس والنظر (6) .فالمعرفة العلمية تتصف اذا بأنها اختبارية عقلية أو تجريبية نظرية فهى نتيجة لسلسلة من العمليات التحويرية والتنظيمية يقيمها العقل على مادة الحواس . وهذا بعينه قاله النحاة العرب بالنسبة للمعرفة النحوية فقد قالوا : « ان النحو هو

(6) انظر الخصائص لابن جنى والتمهيد للباقلانى .

معقـــول مـــن منقـــول » (7) . وقـــد بالـــغ بعض المفكـــرين قـــديما وحديثـــا فى تفضيـــل احـــد الطرفيـــن على الآخـــر . فمنهـــم مـــن تمســـك بالحس تمسكـــا شديـــدا جعلـــه ينفى دور العقـــل أو يقلل من أهميتـــه فى تحصيـــل المعرفـــة العلمية وزعم هؤلاء أن كل معلوماتنا انما هى نتيجة لأحاسيسنا (المذهـــب التجريبى المتطرف) أو لما تواتر علينا من الأخبار . فالذات عندهم عبارة عن قطعة شمع تنطبـــع بما يقع عليها من خارجها فهى دائما منفعلة غير فاعلة . ومنهم من جعل له حدا لا يتعداه فالحس يأتى عندهم فى المرتبة الأولى وأما النشاط الذاتى فهو ينحصر فقط فى ترتيب المحسوس ولا يمكن أن تحصل المعرفة الا اذا حصلت أولا المادة الاختبارية التى هى الجوهر الرئيسى . ونظير ذلك ما طرأ فى زماننا من أحياء لهذا المذهب بفضل « الايجابية » (8) . فقـــد غلا أصحـــاب المذهب السلـــوكى وأصحاب المذهب البنوى (Structuralisme) فى نفى بعض المظاهر للنشاط العقلى التى يتراءى مفعولها فى الرياضيات فان العلـــم لا يحتاج فى جوهره الى المادة الخام التجريبية التى يجرى عليها الباحث المستقرى عملياته التحويريـــة ومع ذلك فالخلق فيه وبه أصبح الآن محققا وقد أنكر أولئك العلماء على بعض الباحثين محاولاتهم لتطبيق الطريقة الفرضية الاستنتاجية (Hypothético - déductive) الخاصة بالرياضيات على علم اللسان الذى هو علم تجريبى وسنرى فيما بعد وجـــه خطأهم فى ذلك .

أما الطرف الآخر فمـــا رأينا أحدا يفضل العمليات العقليـــة فى ذاتهـــا والفرضيات البحتـــة البعيدة على التجربـــة بكيفية مطلقـــة مثـــل الباحثين المنتميين الى مدرســـة النحـــو التفـــريعـــى والتحـــويلى (Gram. générative et transformationnelle) الأمريكى (وزعيمها N. Chomsky) التى ظهرت فى السنوات الأخيـــرة . وسنتكلم عن هذه المدرســـة فى موضعها ان شاء الله .

لقد أشرنا فى مقدمتنا الى وجـــود مذهب جديد لا يؤمن أبدا بمبـــدأ العليـــة (أو السببية) وقد عددنا ذلك من الأوهام المشهورة فى زماننا . الا أن هذا القول قد تفرع عن قـــول آخر سابق سديد وهـــو أن العلم لا يبلغ غايتـــه ولا تتحقـــق أهدافـــه الا اذا انتقـــل من ملاحظـــة الأشيـــاء فى ذاتها الى ملاحظـــة العلاقات والنسب القائمة بينها فأهم غرض يعقده الباحث على موضوع بحثه هو اكتشاف هذه العلاقات فهو ينظر فى آخـــر الامـــر الى نظـــام الاشيـــاء لا الى هـــذه الأشيـــاء نفسهـــا . وهى تتابـــع فى الوجود بكيفيـــة منتظمـــة أيضـــا فيجب الكشـــف عـــن هـــذا الترتيب المكـــانى والزمانى . فـــان اكبر اكتشاف يمكن أن يحصل عليه الباحث هو اكتشاف العلاقـــات والترتيبات بين الظواهر والاحداث فـــاذا تـــم لـــه العثـــور علـــى هذه العلاقـــات وجب أن يبرهن على لزومها وضرورتها أو على عروضها وعدم بقائها . فمفهوم اللزوم هو أهم عنصر يدخل فى تركيب القوانين العامة . فأن يلزم شىء عن شىء آخر فى الطبيعة أحق بأن يكشف عنه الباحث من اى ملاحظة أخرى يحصـــل عليها (9) وكذلك يصير القانون العلمى ذا مفهوم واضح : اذا ثبت لنا بالاستقراء (أى بالمشاهدات الكثيـــرة والتصفح الواسع) ان الحادث (أ) يتلوه فى الوجود وفى ظروف معينة لزوما وضرورة الحادث (ب) فقد استنبطنا بذالـــك قانونا طبيعيا عامـــا وموضوعيا . ويمكـــن أن تصاغ هذه الأمور على الشكل التالى :

---

(7) ابن الانباري ، نزهة الالباء (مقدمة المؤلف) .

(8) أنظر فيما يلي انتقادنا لبعض الادعاءات الباطلة التى أذاعتها « الايجابية » .

(9) ان هذا اللزوم قد عالجه الباحثون منذ زمان بعيد ، كرابط احتمالي (Probabiliste) فهـــو ليس بـــذلـــك لزوما عقليا لأنه بني على ستقراء ناقص (مهمـــا بلغ عدد المعاينات) الا أن تطبيق المفاهيم الرياضيـــة الحديثة على المادة المستقراة قد حولتـــه الى هذا اللزوم العقلي كما سنراه بعد .

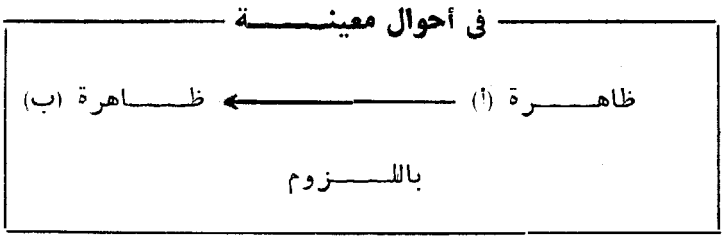

فالقانون العلمى هو اذا كل صيغة (سواء كانت قولا أو رموزا رياضية) :(1) **تثبت وجـود علاقة بين حادثتين ، (2) تبنى هذة العلاقة على اللـزوم و الوجـوب (3) تعين الاحـوال التى تثبت فيها هـذه العلاقـة اللازمـة**

الا أن هذا قد لايكفى فى بعض الأحيان (.والعالم الحقيقى هو من لا يرتاح ابدا الى ما يحققه هو أو غيره من نتائج) لأن القوانين ليست كلها من هذا النوع الذى أثبتناه حيث لا يتحول فيه الحادثان الى شكل آخر . فقد توجد ظواهر تتغير أشكالها من حال الى أخرى وتبقى مع ذلك النسبة التى تربط احداهمـا بالأخرى . فاذا حصل تحـول ظاهرة (أ) مثلا حصل أيضا باللزوم تحول ظاهرة (ب) بكيفية مناسبة اى على تناسب تام بين الحادثين الطارئين (من حيث الكم) . وتسمى هذه القوانين بالقوانين الدالية (lois fonctionnelles) نسبـة الى « الدالـة » التى هى مفهـوم رياضي ومـدلولهـا هو : أن يلزم من كل قيمة يتحول اليها المتحول (س) أن تناسبها قيمة معينة للتابع (ع) ويمكن حينئذ أن ترسم هذه الدالة على شكل خط بيانى . وقد عالج علماء اللسـان الظواهر اللسانية (خصوصا فى المادة اللغوية أى فى المفردات) بهذه الطريقة وتمكنوا من استنباط العلاقات الثابتة القائمة بينها فرسموا لذلك المنحنيات التى تبينها بهـذه الكيفية الموضوعية . وهذا يقتضى أن هذا النوع من العلاقات قابل للتكميم (quantification) وقد كان هذا الجانب الهام من التحليل العلمى مهملا تماما — أو مجهولا عند الاكثرين — لظنهم أن الظواهر الانسانية غير قابلة للتكميم لأنها راجعة الى ذلكم الكائن الميتافيزيقى الذى هو الانسان ! فاقتصرت تحليلات الباحثين على الجانب الكيفى فقط وبفضل مـا توصل اليه العلماء اليوم من نتائج عجيبة مقنعة فى ميدان البحث الكمى ، أخذ الباحثون فى العلوم الانسانية يشكون فى قيمة المناهج التقليديـة وصاروا يتوقون الى تحـويل الأوصاف الكيفية الى دوال رياضية وتعميم المفاهيم الكمية وطرقها التحليلية فى جميـع ميادين البحث .

على أنـه ان صح لهؤلاء الباحثين أن يعتبروا التكميم أمرا ضروريا بالنسبـة الى العلوم الاجتماعية الاستقرائية التى بقيت الى السنوات الأخيرة تخضع لسلطان الكيف — عجز منها أو تعصبا من أصحابها للمناهج القديمة ، فانه لا يصح أبدا أن نحصر جميع القوانين فى نـوع واحد من الصيـغ لاننا نجد من النسـب والقوانين ما لا يقبـل شكـل الدالـة المشار اليها وأقبـح من هـذا هـو أن ننفى هـذه النسـب وهذه العلاقات من الميدان العلمى فان وجب ادخال الكم فى جميع المواد العلمية (نقول هذا بدون أى تردد لاقتناعنا بأهمية الرياضيات) فانه لايمكن أن نكتفى بالصورة الدالية اذ هنـاك صـور أخرى رياضية أهم منها وأعمق بكثير (راجع فيما يلى كلامنا عـن الصياغة الصوريـة) .

وبهذه النزعة المغالية الضيقة التى تريد أن تحصر جميـع القوانين فى الصـورة الدالية ، تعلقت النزعة التى سبق أن تكلمنا عنها وهى التى تنكر كل محاولة تعليليـة

فى البحث العلمى بل وتعتبر العلة كمفهوم ميتافيزيقى محض . وهذه الفكرة ورثناها من المذهب الذى أشرنا اليه وهو منسوب الى A. Comte مؤسس « الايجابية » (سمى هذا المذهب بذلك لأن أتباعه تعلقوا بمشاهدة ما يمكن مشاهدته — على ما يزعمون وتركوا ما يعدونه سالبا غير موجب وهو البحث عن الأشياء الكامنة وأسرار الظواهر) ومما دعا اليه هذا الرجل هو التمسك بظاهر الحدوث وتتبع صيرورته من دون أن يلتفت الى أسباب هذه الصيرورة . وردنا على هذا المذهب المغالى يكون من وجهين :

الاول هو أنه لا يتحقق أن تكون العلة من المفاهيم الخاصة بالفلسفة العامة فزيادة على ثبوت استعمالها — كمفهوم تحليلى على يد اكبر العلماء — خصوصا بعد أن قال كونت كلامه هذا فقد ثبت أيضا — باجماع علماء الفيزياء والأحياء وغيرهما — أن استنباط العلاقات اللازمة بين الاحداث — وان كان أمرا يدعو اليه المنهاج العلمى — ليس كل العلم . وان اكتفى الباحث بالملاحظة الاستقرائية واثبات هذه العلاقات وترك التفسير العلمى لها والتوجيه العقلى المنتظم فقد أضاع نصف العلم ! (10) .

والثانى هو أن كونت لم يتبين عنده جيدا مفهوم العلة كما يفهمه العلماء المحدثون فقد تناسى أن التعليل العلمى الحقيقى هو أن نبين كيف تنتج القوانين بعضها من بعض (لأن هذا التعليل يهتم بالنسب لا بالأحداث كأحداث بحتة) وعلى هذا يمكننا أن نثبت عللها أى أسباب وجودها وحدوثها لأنه اذا توصلنا الى بيان كيفية تفرع القوانين بعضها من بعض (11) فقد بينا بذلك كيفية خروجها الى الوجود أى عللها وأسبابها بمعناها العلمى . وهذا قد وضحه العلماء أنفسهم اذ قالوا : ان التفسير العلمى هو فى الحقيقة سلسلة من العمليات الاستنتاجية والاستنباطية يجريها الباحث فى نفس الوقت على رموز القوانين المجردة وعلى أعيانها المشخصة فكلما أفضى به الاستنتاج الى اثبات قضية ما باللزوم العقلى المحض وتبين له فى الوقت نفسه ثبوت ما يناسبها فى الواقع المحسوس فقد كشف بذلك عن علتها وسر وجودها ، لأنه بفضل ما يجده من انسجام بين ما **يفرعه** من القضاياعلى القوانين المجردة (المصوغة بصيغة رياضية) وبين ما **يفرعه** من النتائج المحسوسة على مشاهداته للواقع يكون قد حول « المنقول الى معقول » أى ماهو منقول اليه بواسطة الحواس الى ماهومعقول بين معلل (وكل معقول فهو معلل بهذه الكيفيه) تستسيغه بديهة العقل ويطمئن له الفكر . فهذا هو التفسير العلمى المنتظم (12) . وخلاصة القول هو ان التعليل هو أيضا من مميزات المعرفة العلمية رغم ما يزعمه أصحاب المذهب المذكور اذ كيف يقتصر العالم على الملاحظة وعلى الوصف ويترك الاجابة عن أهم سؤال يلقيه على نفسه وهو السؤال عن كيفية خروج النسب والقوانين والأنظمة الى الوجود ؟

---

(10) وطالما يزعم « الايجابيون » أن التفسير هو هذا الاستنباط نفسه فاذا حصل الباحث على هذه القوانين الاستقرائية فقد بلغ بذلك غاية العلم وهذا تناقض بين لان التفسير لا ينحصر فى ملاحظة الواقع ووصفه (ولو بطريقة رياضية) بل فى الكشف عن الاسباب العميقة (أسرار الاحداث عند العرب) لنظام الكون .

(11) وننبه القارىء على أن نظرة العلم الحديث هي نظرة اجمالية لا تفصل بين أجزاء الانظومات الطبيعية بل تهتم بالنظام والبنية أكثر من أي شيء آخر .

(12) وسنرى أيضا أن هذا قد يتم باستعمال مثال modèle يبنيه الباحث ويجرده لهذه الغاية وخير المثل التى ابتناها الانسان فى العلوم اللسانية هي المثل النحوية العربية كالميزان الصرفى الذى جردوه من مادة « فعل » ليجروا عليه استنتاجاتهم العقلية وليقارنوا بعد ذلك تصاريف هذا المثال بما استقرؤوه من كلام العرب .

واذ قد مر ان تكلمنا عن علاقة العلم بالفلسفة وعن تحذير أوغست كونت للباحثين من الخوض فى ما لا يمكن اثباته بالمشاهدة . فانه يجدر بنا أن نوضح سلوك الفيلسوف فى البحث ونقارن بينه وبين سلوك العالم . فمنذ أن دعا كونت الى قطع الصلة بكل موضوع غير ظاهر للحواس ونفى التعليل ، حاول الكثير من الباحثين الايجابيين (13) — وحتى بعض الفلاسفة — ان يحددوا ميدان البحث الفلسفى والعلمى . فقالوا : « ان الفلسفة تحاول هى أيضا أن تفسر الواقع وان تصيره الى شىء معقول — مثل العلم — الا أن التفسير الفلسفى لا يقف عند حد الظواهر لأنها فى نظرها — سطحية كثيرة التحول ، لا تستقر على حال فلا يمكن أن تنم عن ذوات الاشياء . أما مستوى البحث العلمى (عند الايجابيين) فهو لا يتجاوز هذه الظواهر لأن الباحث لا يملك من الوسائل ما يمكنه من الوصول الى كنه الأشياء » . وهذا الرأى الذى لا يزال بعض المثقفين متعلقين به قد أعاد النظر فيه العلماء فى زماننا هذا ويبنو فساده بالاعتماد على هذه الحجج :

الحجة الأولى هى ان الظواهر كما حددها الايجابيون لا تنحصر فى هذا العدد القليل مما هو معلوم عند علماء عصرنا أو أى عصر آخر مضى أو بعبارة أخرى أن ما يظهر للحواس ليس محصورا بالضرورة فيما تعارفه الناس منذ أن شعروا بوجودها وبدأوا فى النظر فيها . فكم من ظاهرة كانت كامنة فى خبايا الطبيعة فكشف عنها البحث وكم من ظاهرة كانت تعتبر من مفاهيم ما وراء الطبيعة وقد بان بعد أنها من أحداث هذه الطبيعة وقد حصل ذلك لا بمجرد التأمل والتفكير فى خلية المفكر بل فى المعامل والمخابر وورشات العلم . ويعرف كل واحد الخطوات الهائلة التى خطتها الوسائل التقنية فمكنت الباحث من مشاهدة ما لم يقدر على مشاهدته بل على تصوره فيما قبل . فما الذى يمنع والحالة هذه أن تكون أكثر المفاهيم التى يظن أنها ميتافيزيقية الآن ، مما سيدخل فى حيز الظواهر على ممر الزمن ؟ ويمكن أن يقال اننا لانملك من الوسائل فى هذه الأونة ما يسمح لنا بالخوض فى كثير من المشاكل الميتافيزيقية وهذا صحيح ، لكن لا يجوز لنا أن نطلق القول ونحصر ميدان البحث من الآن الى ابد الآبدين فيما نستطيع أن نشاهده بالوسائل الحالية .

والحجة الثانية : هى ان الظواهر المحسوسة ليست هى وحدها التى تستحق أن ينظر فيها فان موضوع العلم ليس هو خواص الأشياء المحسوسة فقط بل وكذلك خواص الأشياء المعقولة مثل الكائنات الرياضية (كالعدد السالب والخيالى والاصم وغيرها) لأن هذه الكائنات المعقولة يحللها الرياضى ويركبها ويرتبها ويحولها الى كائنات أخرى كما يحلل الكيميا وى ويركب ويرتب ويحول عناصر المادة فيحصل كلاهما بذالك على كائنات جديدة ربما لم تكن معروفة من ذى قبل وهكذا يتوصل كل واحد منهما بعملياتهما التحليلية التركيبية الى اكتشافات خطيرة جدا .

يمكن أن نستخلص مما ذكرناه ما يلى : بما أن العلم يبحث فيما تبحث فيه الفلسفة — طال الزمان أم قصر — وبما أن الظواهر المحسوسة ليست هى الموضوع الوحيد للعلم، بقى ان الميزة الأساسية التى يمتاز بها العلم عن الفلسفة هى ميزة فى المناهج وطرق البحث لا غير . ويظهر الفرق بينهما بوضوح باستعمال العلم لنوعين من المناهج لا تلجأ الفلسفة اليهما حسب ما نلاحظه من مسالك ابحاثها وهما :

(13) وكلهم ينتسبون الى العلوم الانسانية لان هذه العلوم قد خرجت منذ زمان غير بعيد عن حوزة الفلسفة العامة.

— اجراء التجارب بوسائل موضوعية وفعالة

— الاستنتاج الصورى على شكل عمليات جبرية منطقية منتظمة (14) .

فأما التجارب والاختبارات فانها تقع بوسائل لا تمزج الذات بالموضوع (وهذا المزج حاصل فى المعاينة الباطنية والتأمل الفنومنولوجى) وهى وسائل استكشافية وتحقيقية فى نفس الوقت عظيمة المفعول بالنسبة الى العمل الاستقرائى (وكلها — أو تكاد — تقع الآن بواسطة الاجهزة والآلات كما هو معروف) . وأما الاستنتاج الصورى فهو من الوسائل العقلية المحضة وليست قيمته منحصرة فى قوتها الاستدلالية الاستيقانية فقط بل فى فعاليتها الاستكشافية أيضا . وهذا ما يميز منطق العلم الحديث الذى هو منطق الرياضيات من المنطق الاستنتاجى التقليدى الذى لا يعد وأن يكون وسيلة برهنة لا وسيلة كشف . ومن هنا نستخلص أن علم اللسان مغاير ومخالف لما يسمى بفلسفة اللغة وهذا يجب أن يدركه المبتدىء والقارىء غير المحصل ادراكا جيدا ويتفهمه حق الفهم (15) .

قبل أن نختم حديثنا عن ماهية المعرفة العلمية نود أن نلفت انظار أخواننا الباحثين العرب الى خطر كبير قد طرأ على الأبحاث اللغوية العربية منذ زمان غير بعيد . وهو يهدد الآن أركان هذه البحوث من دون أن يتفطن له الكثيرون . ان هذا الخطر قد ظهر عندما تسربت الى الأوساط العلمية العربية بعض الأفكار الأجنبية القديمة تتعلق بموضوع المنطق وعلاقته باللغة . فاننا سمعنا كثيرا وقرانا فيما ينشره فقهاء العربية اليوم كلاما غريبا عن المنطق واللغة من جهة وعن مناهج البحث عند قدامى النحاة العرب من جهة أخرى . فالذى تعلق بأذهان اخواننا هو أن اللغة يستحيل أن تكون كلها منطقية وبالتالى أن تخضع دائما لسلطان العقل . وقد أخذوا ذلك عن اللغويين الذين غلبت عليهم النزعة الفيلولوجية من أمثال فندريس وغيرهم . وقد قال هذا الاخير فى كتابه الذى نقل الى اللغة العربية :« ليست اللغة منطقية دائما وكل منا يتألف من ذكاء وارادة وحساسية وفى كثير من الأحيان نستطيع أن نلحظ فرقا بين لغة العقل والمنطق ولغة الارادة والرغبة ولغة الانفعالات والحساسية » (16) . وهذا وان كان ظاهره صوابا فانه من أخطر الأوهام وأضرها لأنه خطأ تلبس بحقيقة واقعية لا تقبل الجدال وهو أن اللسان البشرى هو أداة تعبير لجميع ما يقع فى نفس المتكلم ، العقلى والوجدانى والارادى فقد تكون على هذا منتظمة أى خاضعة للعقل وقد يصيبها اضطراب مماثل لاضطراب النفس ، فلا تخضع حينئذ للعقل . ومن ثم ارتأى اخواننا انه يجب أن لاتخضع اللغة لسلطان العقل . وهذا التباس عظيم الخطورة . وقد نتج من شيئين :

الاول هو أنهم يرون العقل كله منحصرا فى مجموعة من القواعد المنطقية الجامدة فان خرج شىء (بل أشياء !) عنها قالوا قد خرج عن سلطان العقل ! وقد تناسوا أن

(14) تكون كما قلنا — على شكل سلسلة من العمليات والاجراءات الرياضية يتوصل بها — بترتيبها ترتيبا تدريجيا مؤاتيا — الى الحلول المطلوبة . وكل مجموعة سياقية من هذه العمليات العقلية تسمى الان « خورزما » (Algorithme) وهو اختزال لاسم الخوارزمى واضع علم الجبر .

(15) من الممكن أن تعتبر الفلسفة محاولة نقدية مفيدة للنظريات العلمية العامة (وأن تكون بذلك فى أعلى مراتب البحث العلمي) . ولكن هذا يلزم عليها أن تقاسم العلم استعماله لهذه الوسائل العقلية الاختبارية أو بعبارة أخرى ألا يكون نشاطها نشاطا تأمليا محضا (Réflexif et Contemplatif) بل اجرائيا (Opérationnel) وهذا يقتضى من الفيلسوف أن يتشدد اكثر فى تصحيح المناهج العلمية وأن يجتهد فى التفريق بين نشاط الباحث الراجع الى ذاته وبين موضوع بحثه . وهذا ما تريده العقيدة الماركسية فانها لا ترى فرقا بين الفلسفة وبين العلم من هذه الحيثية (خلافا لما يعتقده الكثير من العلماء الغربيين) . ونحن لا نرى فى ذلك بأسا ما دامت الغاية والمناهج هي هي .

(16) « اللغة » . الترجمة العربية . القاهرة 1950 . ص 182 .

هذه الميزة الانسانيـــة هى قبل كل شيء نشاط وعمل فكـــرى ذو قوة انشائيـــة وبناءة عظيمة . فكان يجب أن يميزوا بين الأحكام الساذجة التى تلتفت الى انسجام الأشياء الخارجى وبين الأحكام العلمية التى تقصد انسجامها العميق . وقد يحكم البسيط مـــن الناس على أن الظاهرة الفلانية غير معقولة (17) فان صرح بأنه لم يتوصل الى سرها وحكمتها وبالتالى الى احلالها محلها من مجموعة الظواهر المعقولة فقد أظهر بتحفظـــه هذا فطنة ولطافة ذهن وأما اذا عنى أن تلك الظاهرة لا يمكن أن يفسرها العقل ابدا لأنها قد شذت عن قواعده فقد أستوجب صفة البساطة واذا جـــاء اللغوى وقـــال هـــذا القول الأخير ثم بنى على ذلك حكمه الفصل بأن اللغة لا تخضع أولا تخضع كلها للعقل كان الخطب أفقـــم وأعظـــم ! والنقطة الأساسية التى انطلقـــت منها هذه الفكـــرة الوهمية هى عدم تمييز اللغويين المذكورين بين استعمال الرجل البسيط لكلمة (Logique) كصفة لما هو منطقى عنده وبين مفهومها العلمى . ففى الاستعمال الأول تدل هذه الكلمة على ما يجده العوام من انسجام خارجى بين الاشياء (فاذا لم يلاحظوا هذا الانسجام قالوا انه غير « Logique »أى غير معقـــول عندهم) وأما المفهـــوم العلمى فهو وصف يطلقه العلماء على العمليات العقلية الصحيحة (المستقيمة من حيث تسلسلها الصورى) وهذا لادخل للغـــة فيه . واذا أرادوا أن يعربوا عن معقوليـــة اللسان فانهم يصفونه بكلمـــة (Intelligible) ويعنـــون بهـــا وبمفهـــوم المعقوليـــة (Intelligibilité) امكانية الادراك العقلى بالنسبة لجميع الظواهر فما من ظاهـــرة فى الدنيا الا ويمكن للعقل (على ممـــر الزمان) أن يدركها ادراكا كافيا بالكشف عن بنيتها الخفيـــة وعن كيفيـــة اندماجها فى النظام الذى يتضمنها وبيان علل حدوثها وتحولها . وكلما خرج شيء عن هذا الذى أثبتوه اقتنعوا بضرورة تعليل هذا الخروج بل واعادة النظر فى القوانين التى أثبتوها وفى النظريات العامة ان اقتضى الحال ، لا لهدمها وازالتها بل لتوسيعها وتصحيحها حسب ما تقتضيه اكتشافاتهم .

والثانى هو التباس آخر وقع فى مدلول كلمة « منطق » . فمن المعروف أن اللفـــظ العربى هو ترجمة لكلمة يونانية يرجع أصلها الى مادة Logos . وهذه المادة تدل عـــلى عدة معان منها الكلام والعقل ولهذا علاقة بما كان يظنه ارسطو من وجود تواز وتطابق تام بين المجارى العقلية والمجارى اللغوية .وقد أثبت علماء النفس فى زماننا عكس ذلك وعلى هذا التحقيق الاخير بنى أصحاب الفيلولوجية التاريخية فكرتهم التى ذكرناها فانهم استدلوا بعدم التطابق والتوازى بين النشاط الفكرى والنشاط الكلامى (18) (وهذا صحيح) على استحالة التوافق المستمر بين المنطق واللغة . وقـــد قلنـــا ان اريد بهذا المنطق حصول التطابق السطحى بين ظاهر الأشياء فهو كذلك (لأن اللغة ليست آلة بسيطة وحلقة مفرغة) ولكن لا يجوز لأى واحد أن يستنتج من ذلك ان الظواهر اللغوية غير قابلة للتحليل العقلى اذ شتان ما بين البحث عن الانسجام العميق للاشيـــاء وبين هذا المنطق الساذج . وان اريد بلفظ المنطق القوانين العقلية التى يتوصل بها الى اثبات

---

(17) مثل عدم التطابق في اللغة العربية بين العدد والمعدود في التذكير والتأنيث وغير ذلك .

(18) ومعنى ذلك أنه ليس كل ما في الذهن يظهر باللزوم في الـكلام وفهمه هؤلاء اللغويون وغيرهم على أن « اللغة ليست كلها منطقية » وأن لها منطقا خاصا ، واذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يفهم هـذا المنطق اللغوي الغامض بدون أن نلجأ الى استعمال المنطق العقلي ؟

الحقائق (19) يكن القول السابق فاسدا من أساسه لأن البحث عن أسرار الأشياء (وهو موضوع العلم) هو عبارة عن تحويل المنقول الى معقول كما قلنا أى جعله قريبا من الأفهام لاخاضعا لسلطان العقل بل موافقا لبديهياته الاولية ولما يترتب على تركيباتها من قضايا ونتائج فالظواهر اذا لم **تعقل** أى اذا لم تحول الى نظام واضح يمكن تعليله وتفسيره فقد بقيت فى حيز المجهول ولم يحصل أى علم حقيقى بادراكها الادراك الحسى المجرد . وهناك فرق بين أن يعقل نظام اللغة ويفسر تفسيرا عقليا بالانتقال من المعلوم الى المجهول) وبين أن يجعل « منطقيا » بالمعنى المشار اليه (أى منسجما فى مظهره الخارجى) (20) .

هذا وقد اعتمد فقهاء اللغة العربية فى زماننا على هذه الالتباسات للهجوم على مناهج البحث التى استعملها النحاة العرب فى القديم واتهموهم ظلما بتهم كثيرة منها محاولتهم اخضاع اللغة للمنطق — اليونانى طبعا ! لانهم لا يتصورون أن يكون لأولئك العلماء منطق آخر غيره (21) وتهاونهم بالنقل والسماع ورأوا فى المذهب الكوفى المنهاج اللغوى السليم لأنهم أعتنوا — فى نظرهم — اعتناء شديدا بالرواية وصوبوا هذا السلوك الذى يعتمد على الاستقراء والذى جعلهم يعتدون بأقوال « الاعرابية الرعناء » فحكموا له بأنه المنهاج الاستقرائى اللائق باللغة . وقد جهلوا أن كثرة الاستعمال وشيوعه هو المقياس الرئيسى فى السماع لأن اللغة **ظاهرة اجتماعية لا فردية** فكيف يتعجبون من تحفظ البصريين فى الرواية ورفضهم الأخذ عمن كان يشذ استعماله عن لغة الاكثرين وامتناعهم من القياس على كل ما شذ فى الاستعمال أى من جعله أصلا (مثالا يمثل **لغة الكافة**) يجوز أن يبوب عليه وتبنى عليه الفروع (أى الاستعمالات غير المسموعة) . فنحن نفهم الآن غضب البصرى الذى يرفض أن تكسر القاعدة التى استنبطها هو أو غيره بالاستقراء الواسع لأجل **شاهد واحد** سمع من **ناطق واحد** ينتمى الى جماعة من العرب غير موثوق بعربيتهم أو وصل اليه برواية ضعيفة . مع هذا كله يقال انه مخطىء متعسف ؟ ونحن لا ننكر أن يكون النحو العربى قد تأثر بمنطق أرسطو (بعد خروجه ناضجا مكتهلا لا قبل) وقد اعتمد هذا المنطق على السلوجسموس (القياس اليونانى (Syllogisme) (22) واثبت المناطقة اليوم أنه الطريقة الناجعة لتحصيل الحاصل ! (Tautologique) وهو يخالف تماما المنطق العربى القديم الذى بنى — كما قلنا — على الاستنباط الاستقرائى (Induction ampiifiante) وعلى الطريقة الفرضية الاستنتاجية (23) .

2 — مفهوم اللسان كموضوع للدراسة العلمية

لا شك أن القارىء قد لا حظ اننا نميل الى استعمال كلمة « لسان » ونفضلها على كلمة « لغة » ولهذا الميل مبرر سنبينه الآن . لقد ترجم بعض المؤلفين العرب لفظ

---

(19) وهذا هو مفهومه العلمي الدقيق ويكون أيضا بمعنى الدراسة العلمية لهذه القوانين .

(20) وقد أيقنا انهم يريدون هذا المعنى الاخير بدليل رجوعهم الى أمثلة تتفق كلها فى وجود اختلاف ظاهر بين العناصر اللغوية (أنظر فندريس ، ط . 1968 . ص 111 وما بعدها) .

(21) راجع مقالتنا « النحو العربي ومنطق أرسطو » فى مجلة كلية الاداب . الجزء الاول . الجزائر 1964 .

(22) وهي أول محاولة لصياغة المحاكمات الفكرية صياغة صورية . وحدد أرسطو القياس السلوجسمي فى التحليلات الاولى (24 ب) . (الترجمة العربية . نشرع . بدوى 1 ، 100) فقال : « هو قول اذا وضعت فيه أشياء أكثر من واحد لزم شيء ما آخر من الاضطرار لوجود تلك الاشياء الموضوعية بذاتها » . وليس هذا القياس تحصيليا لان ما يوجد من معلوم فى النتيجة يوجد أيضا فى المقدمات (بخلاف الاستنتاج الرياضى) .

(23) طرقنا هذا الموضوع فى كتابنا « علم العربية وعلم اللسان العام » .

الـ (Linguistics) بـ « علم اللغة » وكنا لا نرى فى ذلك باسا لو أن كلمة « اللغة » كانت تدل دائما على مفهوم اللسان أى على ما حدده ابن جنى بأنه « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » (24) ولكن الامر ليس هكذا لانه وان دلت كلمة « لغة » على هذا المعنى العام عند ابن جنى مثلا فقد تدل أيضا على معان أخرى مشتركة مشهورة وربما غلبت هذه المعانى الفرعية على المفهوم العام . فمن تلك المعانى نذكر :

1 ــ المفهوم الناتج عند مقابلتها لكلمة « نحو » مقابلة الشيء لقسيمه وكذا مقابلتها للعربية (= علم اللسان العربى) مقابلة الخاص للعام . قال ابن يعيش فى شرح المفصل : « المراد بالعربية اللغة وان كانت العربية أعم من اللغة تقع على كل **مفرد** من كلام العرب والعربية تقع على المفرد والمركب (1 ، 4) . وقال الرضى فى شرح الكافية : « ان الواضع اما أن يضع الفاظامعينة سماعية وتلك هى التى يحتاج فيها الى **علم اللغة** وأما أن يضع قانونا كليا يعرف به الألفاظ فهى قياسية وذلك القانون اما أن يعرف به المفردات . . . وتحتاج فى معرفتها الى علم التصريف واما أن يعرف به المركبات القياسية . . . ويحتاج فى معرفة بعضها الى التصريف . . . . . وفى معرفة بعضها **الى غيره من علم النحو** » (1 ، 5) . وقد سمى العلماء المتأخرون « علم اللغة » بهذا المعنى «علم متن اللغة» تمييزا له عن علم العربية الذى هو أعم منه كما رأينا . قال ابن يعقوب المغربى فى شرح التلخيص : « علم متن اللغة أى معرفة أوضاع **المفردات اللغوية** ويسمى هذا العلم علم المتن لأن المتن هو ظهر الشيء ووسطه وقوته وهذا العلم تعلق بذات اللفظ ومعناه . . » (1 ، 146) فمما تدل عليه اللغة ــ وهو مدلول معروف شائع ــ مجموعة المفردات التى يتكون منها لسان من الالسنة . ودراستها هى ما يسمى بالفرنسية (Léxicologie) .

2 ــ المفهوم الناتج من مقابلتها لكلمة « اصطلاح » . وهذا التقابل يجرى استعماله بكثرة فى التحديدات اللغوية ــ خصوصا فى تحديد معانى المصطلحات . ففى كل الكتب الفقهية مثلا نعثر على مثل هذه العبارات : « الصلاة **لغة** هى الدعاء وفى الاصطلاح . . » فاللغة بهذا المعنى هى المفردات المبتذلة عند جميع الناطقين أى اللغة غير الفنية .

3 ــ رأينا فى كل الكتب النحوية ــ واللغوية بصفة عامة ــ استعمالا آخر حقيقا بأن يلتفت اليه وهو هذا الذى نجده فى مثل هذه العبارات : « والرفع فى جميع هذا عربى كثير فى جميع لغات العرب (سيبويه ط . بولاق . 1 / 110 ــ 111) ــ «لغة كثيرة فى العرب جيدة » (1 ، 314) ــ « لغة أهل الحجاز » (1 ، 28 و 11 ، 256) « لغة هذيل » (11 ، 191) . ومن البين أن كلمة لغة تدل ههنا على استعمالات لغوية اقليمية أو قبلية تمتاز عن الاستعمال العام بميزات خاصة . فهى اذا كيفيات محلية فى اداء اللغة العربية (Réalisations locales) وتطلق غالبا ــ خلافا لما يظن ــ على الكيفيات الجزئية (مثل نصب أهل الحجاز خبر ما المشبهة بليس) وقد تدل على مفهوم اللهجة قليلا لأن قول سيبويه « على لغة هذيل » (11 ، 191) لا يعنى باللغة فيه لسان هذيل كله بل هذا الأداء الخاص الجزئى الذى هو فتح عين الكلمة فى جمع فعلات مع كونها حرف علة مثل بيضات وجوزات . وكذلك اذا قالوا «أن فى جزاف ثلاث لغات» أى ثلاث كيفيات فى ادائها انفردت بها بعض الجماعات دون بعض . وقد يتفق أن تكون هذه الكيفية الادائية واسعة المجال وتعتبر مع ذلك لغة محلية .

فهذه أربعة معان (بما فيها مدلولها الذى حدده ابن جنى) ترجع كلها الى مفاهيم لسانية محضة . أما لفظ « لسان » فانه لا يدل ، بهذا الاعتبار

(24) الخصائص : 1 ، 33 (تحقيق : محمد علي النجار) .

الا علـــى معنى واحد وهـــو المعنى المقصـــــود فى تسميتـــــه « بعلم اللســـان » (25) ونـــرى أن تخصص هذه الكلمة لهذا الغرض وان نقـــول « علم اللسانيـــات » مثلا كما نقول علم الرياضيات أو البصريات وأن تخصص كلمة « لغـــة » اذا أضيفت الى العلم للدلالة على دراسة اوضـــاع المفردات . أما اذا افردت عن العلم فـــلا بأس باستعمالها ، مع كلمة لسان ، للدلالة على المفهوم العام . أما اذا نسبنا شيئا الى اللغة الدالة على مجموعة المفردات اللغوية فالأحسن أن نقول مثلا : الظواهر الافرادية أى الخاصـــــة بالمفـــردات Lexicologique وتقابلها الظواهر التركيبيـــة أى الخاصـــة بالتراكيب وهى الظواهر النحـــوية (النحو بمعناه الخاص أى علم الابنيـــة التركيبيـــة Structures Syntaxiques) أما الكيفيـــات الادائيـــــة المحليـــة أو القبليـــــة فيمكن أن تسمى بالاداء اللهجـــى أو التنـــــوع اللهجـــى (Variante dialectale) . وتستعمـــل كلمة لغة أيضا بهذا المعنى لكن بشرط أن توجد هناك قرينة يرتفع بها اللبس . واذا كان الاداء راجعـــا الى الشخـــص لا الى الجماعـــة فيسمى « لثغـــة » Variante individuelle واذا كان مسببا عـــن عوارض التركيب (وهو جماعى) فهـــو « بدل » (Variante combinatoire) (26) .

هذا وينبغى الآن أن نحدد مفهوم اللسان حسب ما عرفه العلم الحديث وحسب ما هو عليه عند علماء اللسانيات أى باعتباره موضوعا من مواضيع البحث العلمى ونتجنب فى نفس الوقت كل التصورات غير العلمية التى ترجع الى ماهية اللغة ومختلف مظاهرها نقول هذا احترازا عما قد يتوهمه البعض ممن ليس هذا الفن من اختصاصه لأن الكلام فى نظـــر الناطقين ، هو عمل عادى لا غرابة فيه وكل واحد يعتقد أنه من أقرب الأمور الى الأفهام وأعرفها الى الانسان لأنه شىء مألوف يستأنسه المتكلم منذ أن بدأ يقطـــع صوته التقطيعات الكلامية الأولى وبالتالى رسخ فى ذهنه أنه يعرف كل شىء عن اللغة والواقع ان الاستئناس الذى تسببه العادة هو من أكبر العوائق التى تعترض طريق المعرفة العلمية . لأن العلم لا يمكن أن يحصل الا اذا بدأ الانسان يحير فى المخلوقات وظواهر الكون ويتعجب من وقوعها وكيفية حدوثها وأيقن أن ما تكسبه حواسه المجردة وخبرته العفوية من المعلومات السطحية ـــ والخاطئة أحيانا ـــ لا يمكن أن تغنيه عن عناء البحث الاستقرائى وأتعاب الترتيبات والتحويرات العلمية . ومن الصعب جدا أن يتجرد الشخص الذى لا ينتمى الى أهل فن من الفنون من جميع اعتقاداته التى تقع على موضوع هـــذا الفن . ولا شك أن فضل الباحثين فى العلوم الانسانية عظيم لأن الظواهر الانسانيـــة هى ظواهر كثيفة ، يحول بينها وبين الناظر فيها ، الانسان نفسه ، بسبب ألفته لها وما يترتب عليها من الاوهام وكلنا يعرف ماللالفة والعادة من القوة فى تخدير الـــوعى والشعور بصفة عامة والحاسة العلمية بصفة خاصة .

فالسؤال الذى نلقيه على أنفسنا هو السؤال عما عساه أن يدخل من الأحداث والمفاهيم فى ميدان اللسانيات وعما لا يدخل منها فيه أو بعبارة أخرى أن نتساءل مـــاذا يمكننا أن نسبغ عليه صفـــة اللسانيـــة (27) ونقطع عليه بأنه من موضوع علم اللسان

(25) وله ، طبعا ، معان أخرى مثل العضـــو المعروف (وهذا نفس ما هو حاصل فى التسميات الاجنبيـــة) ولسان الميزان وغير ذلك ولكنها معان غير ملبـــة .

(26) استعمل العلماء العرب قديما جميع هذه المصطلحات بهذه المعاني نفسهـــا (باستثناء كلمـــة « لهجة » ومشتقاتها) .

(27) نسبة الى اللسانيات لا الى كلمة « لسان » المجردة لأنها كلمة اي وحدة لغوية يجوز استعمالها على غير ما وضع لها من معنى اصطلاحي . أنظر ما يلي من كلامنا عن الاستعمال المجازي .

وماذا يجب علينا أن ننفى عنه هذه الصفة . وسنبدأ فى الاجابة بهذا القسم السالب من السؤال .

من المعروف أن جميع ما يحصل للدلالة على شيء يمكن أن يستعمل استعمالا مجازيا وكذلك هو الأمر بالنسبة الى كلمة « لغة » (ومرادفها) ، فكثيرا ما نسمع ونقرأ أن للجمادات وللعجماوات لغة ولسانا ولا يعنون بذلك أنها تتكلم وتنطق مثل الانسان انما مقصودهم أن حالها ووضعها وصيرورتها دليل اما على سر راجع اليها واما على سر يضعه الانسان فيها وذلك مثل قولهم « لغة الزهور » ، كأن يدل لونها وكيفية وضعها فى الباقة على غرض من وضعها هكذا وكذلك قول العرب « لسان حالها »وهو قريب من معنى المثل «ورب حال أفصح من مقال » . فالمجاز واقع ههنا بجامع الدلالة فقط وعلى هذا فليست هذه المعانى المجازية داخلة فى ما يصدق عليه موضوع اللسانيات لأن هذ العلم — بما هو علم — يهتم بالحقيقة لا بالمجاز وزد على ذالك أن التسمية المجازية ينتقض بها التحديد العلمى وذلك لان المجاز هو « ما نقل من معناه الاصلى الى معنى آخر لعلاقة جزئية توجد بينهما » بخلاف الحقيقة فانها لفظ بقى على ما وضع عليه فى الأصل .

ومن الأمور التى لا يجوز لنا أن نعزيها الى علم اللسان — كعلم مستقل قائم برأسه — نذكر أيضا الظواهر التى لها علاقة بالاحداث اللغوية وليست هى بنفسها وفى ذاتها ظواهر لغوية بل قد تعتبر هذه وتلك كأفراد لمجموعة أوسع منها وأشمل ، تستوعبها جميعا . وعلى هذا فان اللسان قد يكون موضوعا فرعيا وجزئيا لعلوم وفنون أخرى غير اللسانيات . وهذا يميز العلوم بعضها عن بعض أى كونها تقتصر دائما على موضوع واحد يتفق فى تحديده جميع العلماء (بالاعتماد على صفاته اللازمة لاالعارضة) ثم تفرع عليها الفروع الكثيرة . فالاقتصار على الموضوع الواحد لا يمنعها اذا من الالتفات الى كل ما له علاقة بهذا الموضوع سواء كانت هذه العلاقة علاقة تضمن (inclusion) : من الاعم الى الاخص والعكس (28) أم علاقة تقاطع (intersection) يلتقى احدهما بالآخر فى شيء ويفارقه فى آخر ، فقد ينظر العالم النفسانى مثلا فى احداث الكلام لان لها جانبا سيكولوجيا مهما وينظر العالم الاجتماعى فيها أيضا لاهتمامه بكل ما يحصل فى المجتمعات وبسبب الاجتماع نفسه وقد يهتم المنطقى بما يربط الكلام بالصياغة المنطقية وكل يتناول اللسان وأحداثه من جانب واحد وليس هو فى الحقيقة الموضوع الرئيسي الذى تطرقه اللسانيات البحتة . ففى كل هذه الحالات يعالج اللسان كظاهرة نفسانية او اجتماعية أو منطيقية أى فى اطار غير اطاره الخاص . والدراسة اللسانية كما قال سوسور « هى دراسة من اللسان واليه » (29) لأن لجميع العلوم الاخرى مواضع خاصة بها وقد تلتقى بموضوع علم اللسان ولكن الذى يهمها ليس اللسان فى صفاته الذاتية بل فى صفاته التى ترتبط بموضوع أبحاثها . وقد تنبه اللسانيون الأوربيون الى هذا منذ أن قال سوسور كلمته المشهورة فتركوا للنفسانى دراسة المظهر السيكولوجى وللاجتماعى الجانب الجماعى وللمنطقى الاعتبارات العقلية الصورية وللأديب المظهر الخطابى والشعرى والجمالى واكتفوا بما هو راجع الى اللسان وحده . وهذا المظهر اللسانى المحض هو الذى سنبينه فيما يلى :

(28) تعتبر اللسانيات فرع من علم أوسع وأعم منها يقال له علم الادلة (Sémiologie) وعلى هذا ليس كل ما هو راجع الى هذا الاخير يدخل فى علم اللسان .

(29) انظر كتابه : Cours de linguistique générale ط. باريس 1966 ، ص 317 .

لكي تتضح لنا جيدا اصالة الموضوع المذكور ينبغي أن ننظر في تلك الصفات اللازمة لنكشف عما ينفرد به هو دون غيره . وخير الوسائل في ذلك هو النظر في العلاقات التي تربط بين الأحداث اللغويه المختلفه أي النظر في مراتب عمومها وخصوصها ومواضع تلاشيها وتفارقها . وننطلق من التحديد الذي وضعه العالم الفرنسي اندري مارتني (A. Martinet) فقد قال هذا العالم :

« ان اللسان (30) هو اداة تبليغ ، يحصل على مقياسها تحليل لما يخبره الانسان (31) على خلاف بين جماعة وأخرى (32) وينتهي هذا التحليل الى وحدات ذات مضمون معنوي وصوت ملفوظ وهي العناصر الدالة على معنى (monèmes) ويتقطع هذا الصوت الملفوظ بدوره الى وحدات مميزة ومتعاقبة : وهي العناصر الصوتية (phonèmes) (33) ويكون عددها محصورا في كل لسان وتختلف هي أيضا من حيث ما هيتها والنسب القائمة بينهما باختلاف الالسنة (34) » .

اذا تتبعنا الصفات التي ذكرها مارتني على التوالي ، رأينا أن جميعها لازم لمفهوم اللسان لا تفارقه ابدا ولذلك ادرجها في هذا التحديد الدقيق . وقد يشاركه فيها غيره من الظواهر الا أنها لا تجتمع كلها لغير اللسان كما سنراه . فأول هذه الصفات هي أنها — على حد تعبيره — أداة تبليغ وفي هذه العبارة عنصران أساسيان : الاول هو مفهوم الاداء (= Fonction) (35) الذي تقتضيه كلمة « اداة » والثاني هو التخاطب أو التبليغ المتبادل بين أفراد الجماعة وهو تبادل معلومات وأغراض بكيفية خاصة وهذان العنصران تتفق فيهما اللغة وغيرها من الظواهر الادائية التبليغية . ويقتضي مفهوم الاداء وجود جهاز خاص يستعمل لتحقيق غاية معينة وهو هذا التبليغ وسنرى فيما بعد أهمية هذا المفهوم الجزئي . أما التخاطب (Communication) فيقتضي شيئين أيضا الاول هو أنه لا يتم الا بواسطة نظام من الادلة والعلامات وهو هذا الجهاز الذي أشرنا اليه وهذا ليس خاصا باللغة لأن الأنظمة الدلالية كثيرة (مثل الاشارات العادية والاشارات المصطلح عليها في البحرية ونظام المرور في الطرقات والرموز المستعملة في المواصلات البريدية وغير ذلك) (36) الا أنه صفة لا زمة للغة . والثاني هو أن اللغة انما هي مواضعة واصطلاح (Code) يتواضع عليه الناطقون بها . وكل هذه الأشياء انما هي نظم اجتماعية من نوع خاص ويمكن أن يظهر ترابطها (من الأعم الى الأخص) بهذه الكيفية :

---

(30) أي لسان كان .

(31) أي ما يعلمه بالتجربة سواء كانت حسية أم ذهنية .

(32) بين ذوي الالسنة المختلفة .

(33) يناسب الـ phonème « حرف المبنى » عند العرب وهو يقابل « حرف المعنى » بمفهومه العام القديم أي العنصر الدال على معنى . وقد تطور هذا المفهوم فصار يدل بعد سيبويه على ما يقابل الاسم والفعل .

(34) أنظر كتابه : Eléments de ling. générale الطبعة المذكورة ، ص 20 .

(35) يجب أن يميز بين المعاني التي تدل عليها هذه الكلمة . فاننا رأينا أنها تدل على تحقيق وتأدية اللغة أو الصوت وهذا يناسبه ما يسمى عند اللسانيين بـ réalisation أما هنا فهو قريب من هذا لان الاداء هو القضاء والانجاز فهو القيام بعمل أو وظيفة أو هو الوظيفة نفسها .

(36) وقد حاول العلماء العرب حصر هذه الانظمة في دوال أربعة : الكتابة والاشارة والعقد النصب ، وقد ظهرت الآن أنظمة أخرى كثيرة جدا .

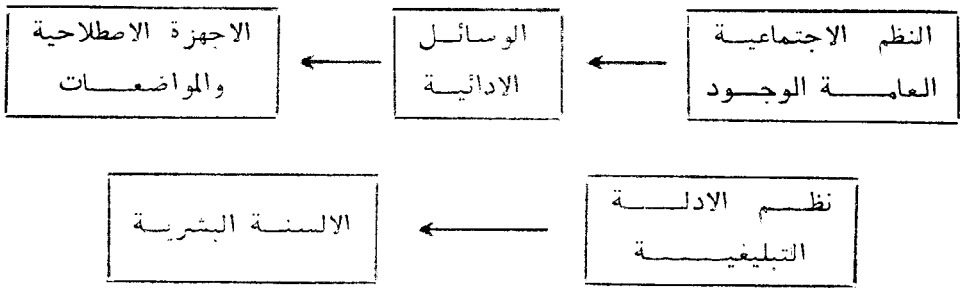

ثم أن اللغة وان كانت مهمتها الرئيسية هى التبليغ فان لها عملا آخر كأنه تابع وملازم للتبليغ وذلك هو تحليلها للواقع الذى يظهر ويتحقق بظهورها وتحققها لأن الكلام الذى هو فعل المتكلم أى المبلغ انما هو تقطيع يقع على حقيقتين مختلفتين فى وقت واحد وهما الصوت الذى يرسله المتكلم والمعانى (ما حصل له من المعلومات الاختبارية) التى يريد ابلاغهـا الى السامع . فواضع اللغة (أى مجموع الناطقين) عندما يضع الأدلة اللغوية بتخصيص بعض المخارج الصوتية ازاء المعانى فانه يجرى على مادة الصوت تحليلا علاجيا يتبعه بالضرورة تحليل آخر مزامن له يجريه على المعانى وكما أن اللغات تختلف بعضها عن بعض فى ماهية أصواتها ونظام أبنيتها فكذلك يختلف تحليل المعانى فيها وهذه هى أكبر حجة يستمدها اللسانيون من مشاهداتهم ليردوا على من ادعى أن اللغة انما هى نسخة — من حيث معانيها — للواقع . تطابقه مطابقة تامة . والحق أن لكل لغة نظرة خاصة الى الواقع (نظرة خاصة لاصحابها فى الحقيقة) ويستلزم هذا أيضا عدم مطابقتها للظواهر الفكرية وقد كان يظن الكثيرون أن الفكر محتاج الى اللغة فلا بد أن يكون هناك كلام نفسانى يماثل الكلام الملفوظ . وهذا صحيح بالنسبة الى الناطق الذى يستعمل اللغة فى جميع محاكماته ويجهل مع ذلك الرياضيات وبالنسبة الى العمليات العقلية الراقية التى يجريها هذا الناطق . أما بالنسبة الى الصم البكم أو الرياضى الذى يستعمل الرموز وبالنسبة الى العمليات اللاشعورية فغير صحيح لأن المفكر يستعمل فى جميع هذه الصور الرموز غير اللغوية ونستنتج من هذا أن قوام التفكير انما هو الرموز مهما كان نوعها لا الرموز اللغوية فقط .

ويفضى بنا كلامنا هذا الى القول بأن الدوال — اللغوية وغير اللغوية — تتكون دائما من مادة هى قوامها ومحلها ونسميها **الدال** ومن مضمون يحل هذا المحل وهو **المدلول** الا أن اللسان قد يفارق غيره من الدوال فى أنه **صوت ملفوظ** فان بعض الدوال قد تكون مادتها غير صوتية (تكون انوارا أو مادة صلبة أو حبرا أو حركات) وتكون أصواتا لكنها غير ملفوظة أى غير حادثة فى المخارج والأحياز الصوتية الانسانية . فهذه ميزة تمتاز بها اللغة عن غيرها وربما حملنا هذا على القول بأن الصفة الصوتية الفيزيولوجية (acoustico-physiologique) هى أهم شىء فى اللغة وليس الأمر كذلك لأن ميزة اللسان الذاتية لا يمكن أن تنحصر فى مادتها بل فى صورتها كما سنراه فيما بعد .

ويترتب على المظهر الصوتى أن للغة بعدا واحدا وهى صفة تخالف فيها بعض الدوال التى لها بعدان أو ثلاثة ابعاد فان الصوت لا يحصل الا متتابعا متسلسلا تتعاقب فيه عناصره الحرفية الواحد بعد الآخر فبعده هو الزمان لا غير وهذا أمر خطير جدا لأنه يؤثر فى نظام اللسان ايما تأثير .

وصفة اخرى تلزم اللغة أيضا هى انقسامها الى مستويين من التحليل وهما :**التقطيع الاولـــى** (première articulation) (37) الـذى يقـع عـلى مـدارج الكـلام (la chaîne verbale) وينتهى الى العناصر الـدالة على المعانى الافـرادية وهى الكلم (38) **والتقطيع الثانوى** الذى يخص هذه الكلم نفسها ويفضى الى العناصر الصوتية غير الدالة التى تتركب منها الكلم وهى حروف المبانى . وهذه ميزة تنفرد بها اللغة أيضا عن غيرهامن الدوال وسنطيل البحث عن اسرارها فى الأبواب الآتية ان شـاء اللـه .

وتتداخل هذه العناصر الاولية والثانوية تداخلا عميقا فتصير بذلك بنيانا مرصوصا ذا انسجام واعتدال ولولا هذا الاعتدال لماكان فى قدرة اللسان أن يقوم بمهمته أى مهمة التبليغ لانه جهازمركب ولا يمكن لأى جهاز أن يؤدى عمله ان لم تتوفر فيه شروط منها هذا الاعتدال القائم بين أجزاء البنيان وبين مواضعها التى تحتلها فى الجهاز فلكل دولاب من دواليبهموضع من المجموعة وكل يؤدى بذلك المحل عملا خاصا به يرتبط بما تقوم به الدواليب الاخرى من أعمال خاصة ارتباطا شديدا فكل يعمـل لفائدة الآخر ولصالـح المجموعة بغية الوصول الى هدف معين وهو التبليغ . فأهم شىء فى اللسـان وأخص صفاته هو اذا الصورة الأدائية التى يختص بها هو وحده والتى تنتج عن تأليف أجزائه وتعاظلها . وهذه الصورة هى البنية اللسانية التى يتخذها اللسانى كموضوع لدراسته .

وقد تتغير المادة التى تتركب منها هذه الأجزاء على ممر الزمان فتتحول الصورة بتحول مادتها حالة بعد حالة وهذا أيضا جدير بالدراسـة الا أن التحولات الزمانيـة كأحداث تاريخية لا تدخل فى مفهوم اللسان لأن الصفة التطورية ليست ذاتية بالنسبة الى اللسان بل الذى يهم اللسانى هو البنية اللسانية فى ذاتها وبالنسبة الى مسالكها ومجاريها فى عملية التبليغ . أما الجانب التطورى فهو اعتبار اضافى لأنه يجوز للباحث أن يتناول اللسان من جـوانب كثيرة : الفيزيولوجية والصوتية والنفسانية والاجتماعية والجغرافية والتاريخية ولكنه فى جميع هذه الحالات يرمى الى شىء واحد (كباحث لسانى فقط) : وهو الكشف عن اسرار البنية اللسانية ومجاريها سواء كان ذلك فى زمان واحد من تطور اللسان ام فى أزمنة كثيرة متتابعـة .

(يتبـع)

عبـد الرحمن
الحاج صالـح

(37) استعمل العلماء العرب هذه التسمية نفسها ـ خصوصا الاسترابيز ـ وهي تؤدي نفس المعنى .

(38) سبق أن قلنا أن العناصر الدالة هي حروف المعاني وهي أيضا الكلم لأن [illegible] وهذا يعني أن تابعه فى ذلك (الرضى الاستراباذى) هى أقل ما ينطق به مما يدل على معنى وتشمل فى مفهومها [illegible] الاعرابية (انظر شرح الكافية للرضى : 1 ص 5 .

المجال المفهومي الدلالي للفظ اللسان